أشبال

٦ أكتوبر



عبد التواب يوسف

أشـــبال ٦ أكتوبر

عبد التواب يوسف

مقـــدمة

بقلم : مرسى سعد الدين
رئيس هيئة الاستعلامات

قرات هذه الرواية بحب ، واستمتعت بها كثيرا .. وطوال قراءتى لها كانت تطوف بذهنى ذكريات حرب رمضان/ اكتوبر المجيدة ، منذ اللحظة التى اعطى فيها صاحب القرار الرئيس انور السادات الاشارة لقواتنا المسلحة لتبدأ معركتها الرائعة الباسلة . التي خاضتها بنجاح كبير ضد قوى الاحتلال الاسرائيلى لارض سيناء الحبيبة .. ولقد عشت المعركة مرة اخرى من خلال هذا العمل الذى كتبه الاستاذ عبد التواب يوسف للاجيال الناشئة ..

وكنت اثناء القراءة اتذكر رحلتنا معا فى مجال ثقافة الطفل حين تحملت مسئولياتها ، وبدأنا بحلقة دراسية للكتاب ، واخترته بين الذين يلقون المحاضرات فاذا به يختار لنفسه مقعد الدارسين ويواظب فى دأب شديد على تلقى الدراسات .. وقبيل انتهائها اعلن عن انشاء جمعية لثقافة الاطفال ، وساندتها بكل ما استطيع ، حتى وضعت اقدامها على طريق النجاح ..

وظللنا معا فى هذا المجال . نلتقى بين حين وآخر من أجل الطفولة ، امل المستقبل .. وتتبعت رحلاته فى انجلترا وفرنسا وألمانيا وايطاليا من اجل هذه المهمة الجليلة ، وسعدت بحصوله على جائزة الدولة فى أدب الاطفال ، وتفرغه لهذا العمل الكبير الشأن ..

.. وانه مما يسعدنى أن اقدم للاجيال الجديدة (اشبال اكتوبر) ليزدادوا معرفة بالدور البطولى الذى قامت به قواتنا المسلحة . حين دمروا مطارات العدو وطائراته فى اللحظات الاولى من المعركة وحين ازالوا الساتر الترابى ، واقتحموا القناة عبورا الى الضفة الاخرى ليحطموا خط بارليف وليخوضوا أعنف حرب دبابات، واصعب حرب الكترونية عرفها التاريخ .. الى أن تم لهم تحرير الضفة الثانية للقناة ، وبذلك عادت السفن تمر بها من جديد من أجل رخاء العالم والانسانية .. كما عاد اهالى مدننا المقاتلة الباسلة : السويس . الاسماعيلية . بور سعيد : الى أرضهم وبلادهم . وبيوتهم . وعادت البسمة الى وجوههم ..

ان التاريخ سوف يذكر هذه المعركة بجانب معركتى عين جالوت وحطين .. فقد كانت المعارك الثلاث : ضد المغوليين ، والصليبيين ، والصهيونيين ، انتصارا لمصر والعروبة ضد قوى الشر والاستعمار والاستغلال ، لتبقى مصرنا مرفوعة الراس حرة شامخة . خالدة على مر العصور ..

ولعل هذه الرواية تكون خطوة نحو تكوين مكتبة متكاملة للناشئين من ابنائنا .. تود لو ان هيئة الاستعلامات تحملت من جانبها مسئولية الكتب الوطنية والقومية ، التى تذكر أبناءنا بامجاد وطنهم وتناشدهم أن يستعيدوها ببذل المزيد من التضحيات، تحية لهم .. ولكاتب هذا العمل

الإهـــداء

الى « عصـــام »

* الذى اشتعلت المعارك وهو فى الثامنـــة وطالب ببندقية ليحارب اعداء مصر .
* والذى تلقى هدية عيد ميلاده ــ فى أثناء القتال ــ قطعة من طائرة فانتوم .
* والذى وضع فوق رأسه ــ بجانب كتاب الله ــ صورة قائد العبور .
* والذى تلقى يوما قبلة من أم الابطال ــ السيدة الأولى ــ تحية لكل الأطفال .
* والذى قدم للمشـــير باقة ورد باسم الأشـــبال وانحنى الرجل العملاق ليضمه اليه .
* والذى ضرب باقدامه دبابات اسرائيل فى معرض الغنائم ، وهو يهتف :

ــ كنت تريدين أن تقتلينى مثل أطفـــال بحـــر البقر ؟!

لقد قال ــ مثل أبناء مصر ــ كلمات أكبر من سنه ..

عبد التواب يوسف

قبـــل
البـــداية

التحق شبل الصغير بالمدرسة الابتدائية فى عام ١٩٦٨ ، وبدأ يتعلم فيها كيف يكتب الارقام من واحد الى عشرة ....

كان يكتب ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٧

وعندما تطلعت اخته الى هذا الذى يكتبه صاحت فيه :

ــ ما هذا ياشبل ؟ انت نسيت الخمسة .. ونسيت الستة .. الأربعة تجىء بعدها الخمسة .. والخمسة بعدها الســـتة .. ثم السبعة !

قال شبل : أنا لا أحب الخمسة .. لا أحبها مطلقا ..

قالت اخته : وأنا أيضا لا أحبها . انها تذكرنى بمنظر دائرة حمراء فى تقرير المدرسة فى امتحان يونيو ١٩٦٧ .. وانظر الى التقرير أراه كأنه مجروح ..وجروحه تنزف دماء غزيرة .

اقترب منها أخوها صلاح وهو يقول :

ــ وأناكذلك لا أحب الخمسة .. لقد حلمت ذات ليلة .. أنه لم يكن حلما ، بل كان كابوسا مرهقا مفزعا .. رأيت خمســات كبيرة كبيرة كأنها عجلات عربات ثقل ضخمة ، تجرى نحوى ، تريد أن تأتى على .. ووقعت على الأرض وأنا أرفع ذراعى أتقى بهــا هذه الخمسات المهلكة ...

وسكت لحظة قبل أن يجيب فى عزم واصرار ..

ــ واذا بالرقم سته (٦) كأنه مسدس يناديني ، وأنا أحاول النهوض .

ــ ما هذا الحديث الغريب عن الرقم (٥) يا أولاد ؟.. يبدو أن خمسة أخرى تسيطر على أفكاركم وأحلامكم .. لستم وحدكم فى هــذا ، فكثيرون يتصورون هذه الخمسة حبلا ملفوفا حول رقابهم .. يخنقهم ويجعلهم غير قادرين على التنفس ..

واجتمع الثلاثة حول أمهم التى كانت تتكلم بصوت عميق واضح ثابت .. وسكت الأبناء ، لا يتكلمون ينتظرون حديث أمهم التى استمرت قائلة :

ــ انتم مؤمنون بالله يا أبنائى .. المؤمن يجب ألا يفقد أمله فى الله ، سبحانه وتعالى .. يجب أن تتــذكروا أن قواعد دينكم خمسة .. أولها :

شهادة أن لا اله الا الله ...

قال صلاح : هذه العبارة يريد كل واحد من بلدنا أن تكون آخر كلمة ينطق بها ..

قالت الأم : نعم .. هى أول ركن من أركان الاسلام الخمسة .. ويأتى من بعدها الصلاة ، والصوم ، والزكاة ، والحج .

وفى هذه اللحظة ارتفع صوت المؤذن .. لا يعرف أحد من أين

انطلق : من مسجد قريب .. أو من الاذاعة .. لقد جاء الصوت من حيث لا يدرى أحد من أين جاء ..

« حى على الصلاة .. حى على الفلاح » ..

وسمعها الجميع « حى على الكفاح » وظلت تتردد فى آذانهم ، والأم تضيف : ثم ان الصلوات خمس .. هل نسيتم هذا ؟ .. وهل تنسون أن تؤدوا هذه الفريضة ؟.. عودوا لايمانكم وصلوا لله لكى يقوى عزيمتنا ، ويثبت خطواتنا .

كان الأب يجلس صامتا ، يسمع دون أن يقول كلمة .. كانت حبات المسبحة تمر بين أصابعه ، وهو يتمتم : الله أكبر .. الله أكبر .

ثم رفع رأسه ، وشارك فى الحديث ، بعد أن جمع حبات المسبحة فى قبضة يده ، ودق بها بقوة وعنف على المنضدة ، ثم رفع أصابعه الخمس أمام أعينهم جميعا .. وقال :

ـــ يدنا الواحدة ، بأصابعنا الخمس ، سنعمل .. سنعمل .. سنعمل .. سنصنع النصر ، غدا .. تعال يا شبل ..

واقترب شبل من أبيه فى خطوات قصيرة وبطيئة ، وهو يقول فى خجل شديد :

ـــ نعم ؟ ..

قال الأب : هات يدك .. وافتحها .

وأمسك الأب بيد الصغير الحبيب ، وراح يشاركه الحديث :

ـــ نعم يا شبل عد على أصابع يدك الأولى ..

ـ ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ .

ـ أكمل ...

ـ خمسة ...

ـ انتقل لليد الثانية ..

ـ ٦ ، انها تشبه مسدسا ينادينى ..

ـ أكمل ...

ـ ٧ ، ٨ ..

ـ وبعدها ؟ ..

ـ تسعة وعشرة .. تسعة وعشرة .. تسعة وعشرة

وعند الرقمين تسعة وعشرة ، توقف شبل ، كأنه تذكر شيئا هاما .

سأل الأب : نعم تسعة وعشرة .. هل تعرفهما ؟

أجاب شبل : أعرفهما جيدا ..

قال الأب : لقد اشتركنا جميعا فى هذين اليومين فى رفض الهزيمة والاصرار على المقاومة .. يجب أن تعد حتى تسعة وعشرة يا شبل .. لابد أن تصل الى تسعة وعشرة .. هيا نبدأ من جديد ..

سكت شبل ، وراح يعد بينه وبين نفسه ، فى صوت هامس ، غير مسموع بينما نادى الأب ابنته لبنى .. وسألها :

ـ لبنى .. لا أريد أوهاما .. الدائرة الحمـراء حول بعض الدرجات ليست خمسة .. وليست دما .. العبرة دائما بالنهاية ..

كثيرون رسبوا فى امتحان واثنين بل وعشرة ..ولكنهم بالعزيمة والاصرار اتخذوا من الفشل سلما يوصلهم للنجاح .

قالت لبنى فى حزن : أنها ستة أيام فقط . كانت امتحانا رهيبا ..

رد الأب : أعرف هذا .. وأعرف أن الرسول عليه الصلاة والسلام لقى مشقة فى بداية دعوته ، وهاجر الى المدينة .. ولم ينتصر فى غزوة أحد .. ولم .. ولم .. ولكن كيف كانت النهاية ؟ الفتح المبين .

واقترب صالح من أبيه ، الذى ربت على كتفه وقال له :

ــ لا أريد أن تختلط الأرقام بالأوهام .. ولا رغبة لى فى أن تتصور الخمسة عجلة كبيرة تريد أن تدوسك .. ان الستة مسدس يناديك أن تحمله ..

لقد انتهت سنة ٦٧ بشرها .. بسوادها .. ونحن نستعد لليوم السابع ..

لا أريده أن يأتى وأنت واقع على الأرض ..

ــ متى يأتى يا أبى ؟ أنا احب السبعة .. السموات سبع والأيام سبعة ..

ــ أريدك حتى يأتى أن تكون مستعدا له .. قف ، تدرب ، اعمل .

ومضت الأيام طويلة رهيبة .. لبنى جاءت تحمل شهادتها بلا علامات حمر . صلاح جاء يحمل بندقية التدريب على كتفه ..

والصغير شبل كان يعد الأرقام كاملة ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، خمسة وستة وسبعة ، ثمانية ٩ ، ١٠ وكان يرفع يده ويقول :

أعرف كلمة من خمسة حروف .. هى .. « النصر » .

* * *

وكبر شبل خلال ست سنوات النكسة ..كبر مائة عام ، الى أن بدأت معارك اكتوبر ٧٣ . والتحق بمدرستها ..

• اذيعت هذه القصة فى برنامج الاطفال – ابلة فضيلة – قبل نهاية عام ١٩٦٧ ، ونشرت بنصها فى مجلة الفردوس – مجلة الطفل المسلم – فى ذكرى ٥ يونيو ٦٨ .

بداية الحكاية

سأل المدرس تلميذه شبل :

ــ كيف قضيت أجازة ما بعد ٦ أكتوبر ١٩٧٣ ؟

صاح شبل : أجازة ؟ .. من قال أنها كانت أجازة ؟ ..لقد كانت عملا متصلا مستمرا .. ذاكرت كثيرا .. وقرأت كثيرا .. ان مناهج المدرسة ، ومقرراتها أسهل بكثير مما ذاكرناه وقرأناه بعد ٦ أكتوبر ..

ابتسم المدرس ، وسأل : كيف كان هذا ؟

أجاب شبل : لقد التحقنا بمدرسة جديدة .. مدرسة لا مثيل لها .. تختلف تماما عن المدارس المعتادة التى نعرفها والتى تدق جرس الصباح فى الثامنة ، وتنتهى الدارســة فيها ما بين الظهر والعصر .. مدرستنا الجديدة كانت بدون مواعيد .. تبدأ فور أن نفتح عيوننا فى الصباح .. وتستمر طيلة النهار ، والى أن نغمض أجفاننا .. كنا نسهر طويلا .. ولم يكن أهلنا يمنعوننا من ذلك .. لأننا ، وهم ، لم يكن من السهل علينا أن ننام .. كنا نسهر كأنما

نحرسها .. ولم تكن هناك حصص ، لها وقتها المحدد ، وتتنوع برامجها ، وموضوعاتها ، بل ونستريح دقائق بين حصة وأخرى ، ونجد بعض الوقت للترويح عن النفس ، ولكنها مدرسة بدون حصص ، بدون وقت محدد .. نقرأ .. نقرأ .. نقرأ .. نقرأ .. نسمع .. نسمع .. نسمع .. نشاهد .. نشاهد .. نشاهد .. ولا نجد لحظة واحدة نلتقط فيها أنفاسنا ، أو نستريح فيها من هذا الجهد الكبير .. وأحيانا كنا نكتب .. ونرسم .. ونجمع ، ونطرح ، وكنا نريد أن « نضرب » أعداءنا ، وان « نقسم » صفوفهم .. وقرأنا الصحف كما لم نقرأها فى حياتنا : كلمة كلمة .. وتابعنا الاذاعة نسمعها لحظة بلحظة .. وشاهدنا الصور ، والتليفزيون دقيقة ، بدقيقة .. وكان أساتذتنا فى هذه الفترة يختلفون عن المعلمين فى المدرسة .. أساتذة من الضباط .. من الجنود .. من الصحفيين .. من المذيعين .. من الكتاب .. بل أصبح بعضنا « أساتذة » و « معلمين » و « مدرسين » .. وكانت الدراسة فى « علوم » لم نسمع عنها كثيرا .. علوم عسكرية .. استراتيجية .. تكتيكية .. ثم هناك تكنولوجيا .. والكترونات .. و ..

وبعد كل ذلك ، تقولون « أجازة » ..

ويدهش المعلم لكلام شبل .. أنه كلام كبير .. كيف عرفه ؟ متى تعلمه ؟ وعلى يد من ؟ وأين ؟ .. نعم ، انه صادق .. هذه المدرسة الجديدة لم يدخلها شبل وحده ، بل شبل وشقيقته .. وكل الأبناء . التحق بهذه المدرسة كل الناس . كل الشعب .. انها

مدرسة : مصر .. مدرسة : العروبة .. مدرسة : المعركة .. وقد وجدنا أنفسنا جميعا مثل شبل : نقرأ ، نسمع ، نشاهد .. ندرس التاريخ : تاريخ مصر ، وتاريخ العروبة وتاريخ بنى اسرائيل .. وتاريخ الحروب ، وتاريخ المعارك ، وتاريخ الانتصارات . وكنا أيضا نرسم الخرائط .. سيناء .. القناة .. الجولان .. وكنا نسأل ألف سؤال .. تحول كل الكبار الى تلاميذ من جديد . يحاولون أن يعرفوا .. يتعلموا .. أن يدرسوا .. كانت برامج رمضان فى كل عام تشدنا بما فيها من دين وروحانية ، وتهذيب ، من ترويح وتسلية وترفيه ، واذا بنا أمام مسلسلات فيهـا أعظم المفاجآت وأروعها ، وهى تحمل أرقام : البيانات رقم .... ولو شغلنا أمرا ، نسأل دائما : هل من بيان جديد ؟ .. ويرجع الأب من عمله وقد استغرقت العودة بعض الوقت ، فيسألنا عن الأخبار .. ونسأله .. وكثيرون مثل شبل تابعوا البيانات حتى حفظوها عن ظهر قلب .. عندما كان المذيع فى احدى المحطات يعيد قراءتها ، نجد الأبناء يرددونها معه .. كأنما هى محفوظات وأناشيد وأغنيات .. واذا اضطررنا الى الخروج الى الطريق ، وارتفع صوت مذياع جرينا اليه نسمع منه ، ونعطيه اذننا ، ونسأل الملتفين حوله : كم رقم هذا البيــان ؟؟ ..

ولم تخل هذه المدرسة الجديدة من الفن ، فقد حفلت ببعض الألحان والأنغام ، وانطلقت الاصوات ، حلوة معبرة ، تشــدو

بمصر ، وبحب مصر .. كما أن المدرسة الجديدة كانت تضم حصصا للتعبير الفنى ، فقد هتفنا أكثر من مرة :

ــ الله عليك يا بلادنا ..

ــ تسلم لنا يا جيشنا ..

ــ ما أعظم بطولاتكم ..

وقد تمتد حصص التعبير ، والشرح ، والردود على الأسئلة ..

ــ ماذا نريد ؟ ..

ــ التحرير .. واستعادة أرض الوطن .

ــ وماذا يريدون ؟..

ــ التوسع .. وامتلاك أرض الغير .

وندرس التاريخ .. تاريخهم معنا .. ونقرأ الخرائط .. خريطة للوطن العربى ، وأماكن البترول . وخريطة لأفريقيا ، ذات القلب الأبيض ، والدول التى تقطع علاقاتها باسرائيل . ونرسم أوربا : من فيها مع الحق ، من فيهـــا يصر على أن يبقى على الباطل ؟ .. من سنقطع عنه البترول أى الدفء ، والطاقة والضياء ؟ .. وتتمتع بالتطلع الى الصور فى الصحف ، وعلى الشــاشة : نرى الأبطال البواسل الذين خاضعوا المعركة ، ونشاهد الأسرى الاذلاء الذين حاولوا الهــرب منها ، ونقارن بين اللوحتين .. رجال يقتحمون النار ، وآخرون من الأعداء يرفعون أيديهم ، أو يضعونها خلف رؤوسهم ، أو يلوحون فيها بالأعلام البيض ، يسلمون ويستسلمون

.. أما أعلامنا قد خفقت عالية فى سيناء ، وصلت الى قرب النجوم .. رأينا من سموا أنفسهم « شعب الله المختار » ينهزمون أمام الجنود السمر ، المؤمنين بأننا كلنا أبناء آدم وحواء ، وأننا كلنا « أبناء تسعة » ، وأننا مثل أسنان المشط ، وأنه لا فضــل لعربى على أعجمى الا بالتقوى والعمل الصالح .. وهل هنــاك عمل صالح أروع من الجهاد فى سبيل الله والوطن ؟ .. واذا بهؤلاء الأبطال يختارهم الله ، وعدا حقا ، لكى يسقطوا أسطورة الشعب المختار ، يختارهم الله لكى تعلو كلمته ، ولكى ترتفع من قلب سيناء :

ــ الله أكبر .. الله أكبر

وفى المدرسة الجديدة كنا نتعلم خطا جديدا .. وعرفنا النسخ والرقعة والثلث ، وأخذنا خط « بارليف » .

ويضحك معلم شبل ويقول له :

ــ هذا ليس خط بارليف انه خطأ بارليف ..

أو يقول لزميله :

ــ حسن خطك .. أنه يبدو مثل خط بارليف .

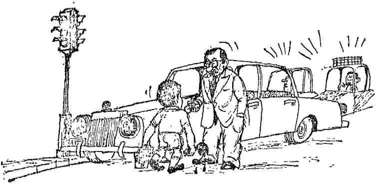
وتعلمنا فى المدرسة الجديدة دورسا أخلاقية عظيمة .. تعلمنا درس الصبر والصمت .. تعلمنــا ألا نزهو بالنصر ولا نشعر معه بالغرور ، بل تمالكنا أعصابنا .. لأننا نعرف أنه من عند الله .. وتعلمنا أيضا عندما اشتدت المعــارك أن نكون هادئين ، مالكين لزمامنا ، لأنه اختبار لنا وامتحان .. وتعلمنا أن الحق ، كل الحق ،

ولا شيء غير الحق ، هو الذى يعيش ، وأن الكذب ، حبله قصير ، وانه سرعان ما يتكشف وينقشع ويضيع .. وتعلمنا فى المدرسة الجديدة معنى الايمان ، وسمعنا ألف حكاية وحكاية عن الايمان الذى صنع المعجزات لحظة العبور وخلال اقتحام الخطوط الحصينة ، وأثناء معركة الدبابات الشرسة ، الايمان بالله ، بالوطن ، بالشعب .. الايمان بالحرية ، بالعروبة ، بالسلام ..

لقد تلقينا دروسا عظيمة فى المدرسة الجديدة .. دروسا عملية .. فى الدين .. فى اللغة .. فى الأدب .. فى الفن .. فى التاريخ .. فى الجغرافيا .. فى التربية .. فى العلوم .. ولم تكن مدرستنا الجديدة : ابتدائية ولا هى اعدادية ، ولا هى ثانوية .. بل مدرسة عليا : فى الشجاعة . فى الأقدام . فى البسالة .. دخلها الجميع : دخلها الأطفال ليصبحوا شبانا .. دخلها الشباب وأصبحوا رجالا .. ودخلها الرجال وتخرجوا فيها أبطالا .. وكان النجاح .. وكان الفوز .. وكان النصر ، الذى وعد الله به المتقين .. وشهدت لنا الدنيا باننا نجحنا فى مدرسة مصر .. مدرسة العروبة .. مدرسة المعركة .. نجحنا بتفوق على العدو ..

وعدنا الى مدارسنا ، المعتادة ، لنضع فى أيدينا سلاح العلم ، بجانب بقية الأسلحة .. سلاح الايمان .. بجانب السلاح السوفيتى .. وسلاح البترول العربى .. وسلاح المقاطعة الافريقى ..

— ١ —



شبل مجند ، عمره عشر سنوات وعشرة شهور مع بداية الدراسة فى السادسة الابتـــدائية .. وهو يعيش بجرح عميق فى نفسه ، اذ استشـــهد شقيقه الحبيب صلاح وهو يقوم بعملية فدائية داخل أراضينا فى سيناء خلال عام ١٩٧٠ .

وكانت القوات المسلحة المصرية قد استدعت والد « شبل » ليلتحق بوحدته على الفور ، ووجد الصغير نفسه رب البيت ، لذلك أعلن أنه جند نفسه فى خدمة والدته ، وشقيقته .. وظل طول أجازة الصيف يبيع الصحف والمجلات ، ونجح فى أن يكسب صـــداقة كثيرين من سكان العمـــارات الجديدة قرب بيته ، وذلك بذكائه وأدبه ..

وفى رمضان المعظم ، عام ١٣٩٣ ، قذف « شبل » من تحت الأبواب بصحيفة الصباح ، ومعها بطاقة صغيرة ، عليها رسوم جميلة بسيطة : هلال ، فانوس ، مئذنة ، وبجانبها عبارة : كل عام وأنتم بخير .. وكانت هذه تحية لطيفة من بائع الصحف الصغير ، رد عليها الزبائن بأن دفعوا له فى أول أكتوبر ١٩٧٣ ما يزيد على حسابه ، منحة وهدية ..

وفى يوم السبت ، السادس من أكتوبر ، كان على « شبل » أن يقوم بتوزيع عدد كبير من المجلات والصحف .. والجرائد اليومية : أخبار اليوم ، وحواء ، ومجلة الاذاعة .. مع بقية المجلات الشهرية ، لذلك استيقظ مبكرا نشيطا ، شاعرا بأن يومه أكثر ضياء ونورا .. واستطاع أن ينجز مهمته بسرعة ، ليتجه الى مدرسته . وبعد عودته ، وخلال استذكاره لدرسه سمع ضجة فى دكان العم محمود ، فأطل من النافذة ليرى مشهدا غريبا .. الناس يصفقون ويرقصون ، ويهتفون لمصر .. وسأل نفسه : ماذا هناك ؟ .. ودار بسرعة ليقفز درجات السلم ، وسمع أجمل خبر .. أن القوات المسلحة المصرية قد عبرت قناة السويس ، ورفعت علم مصر على سيناء .

ويسهر « شبل » ليلته مع المذياع ، ويسلى نفسه بين البيانات برسم بطاقات جديدة ، عليها كلمات فريدة ، مع رسوم رائعة : دبابة : طائرة . مدفع . وفى حروف واضحة كتب : « مبروك العبور .. النصر لمصر » . وتحتها ، ملاحظة : « الجريدة التى تحمل لكم خبر العبور ارتفع ثمنها ، أنها لا يمكن أن تكون بنفس السعر ..

الفارق للمجهود الحربى » . ووقع باسمه « شبل » .. وكانت هذه البطاقة ، مع جريدة ٧ أكتوبر ، لها فعل السحر : هزت مشاعر أهل الحى ، لذلك دفع بعضهم عشرة أضعاف ثمن الصحيفة ، ودفع البعض خمسة أضعاف ، وتجمع عند « شبل » ٢٧٧ قرشا ، حملها قبل الظهر الى مكتب البريد .. ويسأله رئيس المكتب :

ــ هل التبرع منك ؟

ــ لا ، من أبناء الحى ..

ــ ما قيمته ؟

ــ أريد اذن بريد بـ .. بـ .. ثلاثة جنيهات .. سأدفع من عندى ثلاثة وعشرين قرشا ..

ويبتسم رئيس المكتب ، ويقول فى عطف ..

ــ كفى أنك صاحب الفكرة .. وأنك سهرت طول الليل لترسم وتكتب البطاقات .. وأنك جمعت المبلغ .. والأهم من هذا وطنيتك التى دفعتك لهذا العمل الكبير .. أنت تستحق الشكر على المجهود الذى بذلته .

كان « شبل » طول الوقت صامتا ، كأنه لا يسمع ، وظلت يده ممدودة بالجنيهات الثلاثة ، ويسأل نفسه ..

ــ هل أبعث بالاذن باسم الرئيس أنور السادات القائد الأعلى للقوات المسلحة ؟ أم أرسله باسم القائد العام للقوات المسلحة ؟ أم باسم رئيس هيئة أركان حرب القوات المسلحة ؟

ويسمعه رئيس المكتب، ويقول له :

ــ لك أن تختار .

يرد شبل : لا اريد أن أشغلهم بصرف الاذن .. اكتبه باسم القوات المسلحة ..

ويحمل شبل الاذن ويمضى الى بائع الطلاء والأصباغ والألوان فى الحى ، ليشترى علبة .. ويسأله البائع ..

ــ لماذا تريد هذه الألوان ؟ .. أنت تبيع الفل والياسمين فى المساء ؟

ــ عندى اليوم واجب أهم ..

ويدرك البائع الأمر ، ويعطيه الصبغة الزرقاء بلا مقابل ، ويعيره فرشاه ، وينطلق « شبل » بين العربات ، مثلما كان يفعل أيام كان يبيع الفل والياسمين ، ويطلى فوانيس السيارات باللون الأزرق ، ويتقاضى من أصحابها ما تجود به نفوسهم .. ويعود الى البيت مرهقا ، متعبا ، لكنه يحس بسعادة كبيرة لأنه يشارك بعمل ما فى المعركة .. وتسأله شقيقته ..

ــ كم ربحت اليوم ؟

ــ لا شىء .. مثل كل يوم .

صاحت أخته : ماذا تقول ؟ لقد قمت بمجهود كبير ..

ــ فعلا .. ولكن كل زيادة فى أرباح يومى هذا ليست من حقى .. وحرام أن تدخل بيتنا .. لقد أرسلت ظهر اليوم ما ربحته

من بيع الصحف والمجلات .. وما كسبته من طلاء الفوانيس باللون الأزرق ، سأبعث به غدا .

قالت أخته : لماذا لا تستبقى لنفسك جانبا مما تكسب ؟

أجاب : انى أرفض أن أتاجر بالمعركة ..

سألته : وغدا ، هل ستطلى الفوانيس ؟

أجاب : لا طبعا .. لا أظن أن هناك فانوسا واحدا لم يطل .. أتظنين أنه ليس هناك فى بلادنا الا شبل واحد .. ان أطفال مصر كلهم أشبال .. اشبال ٦ أكتوبر . هناك أسود على جبهة القتال ، وأطفال أشبال ٦ أكتوبر فى الجبهة الداخلية ..

واهتزت الأم للكلمات ، وقامت لتقبله على جبينه .. وهمست

ــ تصبح على خير ، يا حبيبى ..

ــ تصبحين ، ومصر ، على خير يا أمى ..

ولم ينم .. ومن يستطيع أن ينام ، ومصر مستيقظة تقاتل .. كل الناس ساهرون .. كأنما هم جنود يحرسون .. و « شبل » يتابع الاخبار ، ويعمل .. وتسأله شقيقته :

ــ شبل .. لماذا أنت مستيقظ ؟ ماذا تفعل ؟

ــ انى أجهز « غرفة عمليات » ..

وصاحت الأخت فى دهشة : غرفة عمليات ؟.

ــ نعم .. كل واحد فى مصر يجب أن يكون له دوره .. وغرفة

العمليات الخاصة بى ، فيها كل ما يمكن أن يخـدم المعركة .. أوراق .. أقلام .. ألوان .. خيوط .. زجاجات صمغ .. كل هذه الأشياء يمكن أن تساهم فى العمل .. والرئيس يقول (كل شىء فى خدمة المعركة) ..

وتضحك الشقيقة وتقول : غدا أزورك فى « غرفة العمليات »

يبتسم « شبل » ويقول :

ــ لا وقت للزيارات يا عزيزتى .. تعالى لتعملى ..

وبدأت الشقيقة تعمل مع شقيقها ، وخلال العمل كانا يتبادلان أحاديث موجزة .. سألته :

ــ هل هناك فائدة من هذه الأشياء ؟ ! ما قيمتها ؟

ــ اننى واثق من أن كل شىء يمكن أن يدخل المعـركة .. الكراسة : تقاتل .. القلم : يحارب .. وأيضا هذا الخيط ، وزجاجة الصمغ .. وقصاصات الأوراق .

كانت هناك قصاصات من صحف قديمة ، وحكايات نقلها من قبل فى كراساته ، وكتب وخرائط .. وتسأل الشقيقة ..

ــ هل دفع لك أحد أصحاب السـيارات مبلغا كبيرا لأنك طليت فانوسه بالأزرق ؟

قال شبل : نعم .. واحد منهم صرخ فى ألا أطلى فانوسه ، لأنه سيذهب بسيارته الى محل كبير يقوم له بهذا العمل بشكل أنيق ..

ولم أهتم بكلماته ، فغضب وأقسم أنه لن يدفع لى شيئا .. وأدار محرك سيارته عند اشارة المرور ، وكاد ينطلق بها لولا خوفه من أن يصدمنى وكنت منهمكا لدرجة أنى لم آتنبــه الى أنه أوقف المحرك ، ونزل لكى يعنفنى بكلماته ، ويكرر أنه لن يعطينى مليما واحدا .. فقلت له انى متطوع ، أقوم بالواجب ، مساعدة للدفاع المدنى وفق تعليمات وزير الداخلية .. وأحسست أن الرجل خجل من نفسه وأنا أضيف .. ان بائع الطلاء أهدانى اياه ، وأعارنى الفرشاة .. وأننى أنهض بهذا العمل لأن هناك أطباء سيحتاجهم جنودنا ، وصحفيين سيكتبون لنا أخبار المعركة ، ومذيعين سوف يقدمون لنا البيانات العسكرية .. انهم مشغولون .. وقد ينسون طلاء فوانيس سياراتهم .. ودهشت لأن الرجل وضــع فى جيبى جنيها .. فسارعت بانتزاعه وخرج معه ايصـــال مكتب البريد ، ودفعت بهما اليه فى يده دون أن أتنبه ، فأمسك بالورقة وفى لمح البصر أدرك أنه يمسك بورقة فيها تبرع للقوات المسلحة .. وكانت أبواق السيارات قد ارتفعت تطالبه بأن يفسح لها الطريق ، فمضى الى سيارته وأدارها ، ووضعها الى جانب الطريق وعاد الى وقد انهمكت فى طلاء فانوس ســيارة أخرى .. وأعاد الى الايصال ، والجنيه .. وقال لى ..

ــ اقسمت عليك بمصر أن تأخذ الجنيه وألا تتبرع به .. فانى سأدفع عنك .. أستحلفك بمصر .

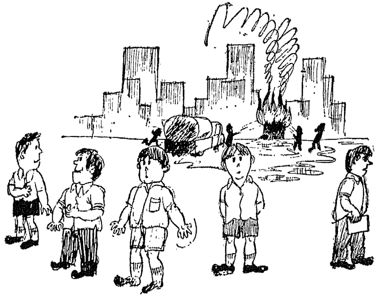
ابتسمت ، وقلت : تدفع عنى ! ان أبى يدفع عن مصر كلها .. انه فى الجبهة .

ولم يتمالك الرجل نفسه وضمنى اليه ولم يخف على ملابسه من الطلاء وقبل ، أن أفيق الى نفسى كان قد مضى الى سيارته وانطلق بها تاركا الايصال والجنيه ..

وتسأل الشقيقة : وهل أخذت الجنيه لنفسك ؟

أجاب شبل : لا .. ولكننى لن أتبرع به .. سأجد سبيلا لانفاقه على المعركة .

— ٢ —



كان « شبل » قد رتب لنفسه « غرفة عمليات » بسـبطه ، لا تتجاوز ركنا صغيرا فى البيت .. جعل فيه كل ما لديه ، وما يتصور أنه يسـتطيع أن يخدمه فى عمله ، وكان زملاؤه فى أجازة من المدرسة ،وكل منهم يريد أن يصنع شيئا .. كل منهم يريد أن يقدم خدمة للوطن ، وسرعان ما تكونت منهم « كتيبة » أطلقوا عليها « أشبال ٦ أكتوبر » .. عقدت اجتماعها الأول فى فناء بيت شبل ، واختاروه رئيسا لهم : تكريما لأبيه الذى يقاتل فى الجبهة ، وتقديرا لما فعله فى بداية المعركة من رفضه لزيادة أرباحه من بيع الصحف

وتطوعه لطلاء فوانيس السيارات باللون الأزرق . وبدأت الكتيبة تحدد لنفسها أهدافا ، وتضع الوسائل التى يمكن أن تحقق بها هذه الأهداف ، وترتب خطة كاملة ، يوزع فيها العمل على جميع .. واحد منهم يجمع أخبار الحى .. وآخر يلخص أخبار الصحف والاذاعة .. وثالث يلتقط الاشاعات .. ورابع يعد صحيفة الحائط ويختار لها المواد .. وخامس .. وسادس .. ان الجميع يعملون ولا يتخلفون عن أداء الواجب ، وهم يعتبرون أنفسهم صفا ثانيا ، يعاون الدفاع المدنى فى مهماته ، فان سنهم الصغيرة لم تسمح لهم بأن يشاركوا فى هذا العمل الكبير الذى كان يقوم به الشباب ، من أخوتهم الكبار .. وكان الأولاد يتصورون أن هذا الشباب سيسخر منهم ، ويضحك من تصرفاتهم ، الا أنهم دهشوا لأنهم لاقوا تقديرا كبيرا لعملهم ، وتشجيعا عليه .. وابتهجوا لأن العم محمود وافق على أن تعلق صحيفة الحائط على باب دكانه .. بل تبرع لهم بالورق اللازم لها ، وكانت الصحيفة تنشر البيانات التى تصدرها القيادة العامة للقوات المسلحة فور اذاعتها ، ويأتى الشباب ، والرجال ، والنساء لكى يطالعوا هذه البيانات اذا كان قد فاتهم سماعها عند اذاعتها ، أو سـمعوها مرة واحدة ، وهم يسعدون بقراءتها على مهل ، ويستنتجون منها الكثير .. ان (أشبال ٦ اكتوبر) يعملون .. صحيفة الحائط تعلق على أحد جانبى الباب ، وعلى الجانب الآخر :صور الرئيس المؤمن أنور السادات .. ثم صور أخرى انتزعوها من الصحف لعمليات العبور ، وللطائرات

الاسرائيلية التى سقطت ، ولدباباتهم التى دمرت .. وكانوا يكتبون أرقام الطائرات التى تسقط على الجبهة المصرية .. وتلك التى تسقط على الجبهة السـورية .. وكانت كل فكرة حلوة يحظى صاحبها بقطعة من الحلوى من العم محمود ، الذى أتى من مخزنه بكل ما كان لديه من مواد تموينية ، وبعث بالأولاد والبنات ـ أشبال ٦ أكتوبر ـ الى البيوت يسأل أصحابها عن احتياجاتهم .. وقام بتوزيعها بلا زيادة فى الأسعار ، ولم يشعر أهالى الحى بأية أزمة فى أى مادة من مواد التموين .. ولم يتجمعوا للشراء ، بل لمتابعة الأخبار ، وقراءة صحيفة الحائط .. كل ذلك وشبل يقوم بعمله فى الصباح الباكر ، يحمل الصحف كما تعود ، يضعها من تحت الباب .. ثم وضع نسخة من كل صحيفة على مقعـد العم محمود ، ليقرأها من يشاء بلا مقابل ، ويتركها مكانها ..

وسمعت الحارة والشـارع والحى عن أشـبال ٦ أكتوبر ، وعرفوهم ، مع أنهم لم يلبسوا زيا خاصا ، ولم يضعوا شـارة معينة ، ولكنهم ظهروا من تحركاتهم وتصرفاتهم وكلماتهم .. كانوا يتحركون بهدوء شديد ، وبأعصاب مطمئنة ، وكانوا يتصرفون بعقل راجح ، وحكمة واضحة ، ووطنية صادقة .. وكانوا يتكلمون قليلا ويعملون كثيرا ، وكلماتهم دائما فى الصميم عندما يتحدثون أو يكتبون . وكان كل شبل منهم يؤدى مهمته على خير وجه ، بحيث تشغل كل وقته ، ولا تسمح له بدقيقة فراغ .. وعندما جلس « محمد فريد » الى المنضدة الصغيرة بجوار لوحة الاعلانات عند

باب دكان العم محمود ، كان يقوم بمسئولية الاستعلامات ، بينما « مصطفى كامل » يقف فى نوبة الحراسة ، وذهب « رمضان » يكتب بخطه الدقيق صحيفة الحائط ، ورسم صالح لوحات معبرة لتعلق على الجدران . أما « هشام » فكان يجلس بجوار الراديو يلتقط البيانات والأخبار ، واستعدت « لبنى » لكى تعلم أطفال الرياض والسنة الأولى الابتدائية كيف يكتبون الحروف ، وراحت تعد بعض الحكايات الوطنية لترويها لهم ، وجهزت سامية بعض الاسعافات الأولية للفريق كله ، وتجول « جمال » فى الحى فى هدوء يستمع الى ما يقوله الناس ليجمع الاشاعات .. وكان «شبل» يمر بهم ، ويطمئن على حسن سير العمل .. وتوقف عند « محمد فريد » اذ ادهشه انه يجلس فى كسل ، ولم يكن بين يديه شيء يفعله ، لذلك سأله :

ـ لماذا انت ساكت ؟

ـ انى مكلف بالاستعلامات وانتظر من يريد أن يستعلم منى عن شيء ..

ـ هل انجزت خريطة الحى ؟ هل أصبحت لديك قائمة ببيوت الأبطال الذين هم فى الجبهة لنحرس هذه البيوت ونضع أنفسنا فى خدمة أسر الأبطال ؟

ـ الخريطة عند « صالح » يرسمها بالألوان . القائمة تمت و « رمضان » يكتبها بخط انيق .

ـ والى اى شيء ترجع اذا سئلت عن حارة فى الحى أو ساكن ؟

ـ لدينا المسودات .. ها هى ..

اخرج « محمد فريد » أوراقا متناثرة من درج المنضدة ، فنظر اليها شبل ، ثم تطلع الى « محمد فريد » ..

ـ الم يكن من الأفضل أن ترتبها ، أو تنسخ منها صورة بدلا من جلوسك فى صمت ؟

ـ انى أترقب مكالمة تليفونية ستأتى على دكان العم محمود ..

ـ هل تتصور يا فريد ان اسرائيليا فى مثل سننا يجلس هكذا ساكتا ، ينتظر ؟

ـ ماذا يمكن ان يفعل ؟

ـ انه يشغل نفسه بشيء ما .. يقرأ فى كتاب .. يستثمر لحظاته فى عمل مفيد .. لماذا لا تعد بيانا منا لأشبال الحى ، ولأشبال الأحياء المجاورة ؟ !

ـ فكرة .. سأحاول .

غادره « شبل » ، وقد قرر أن يصدر يوميا عن غرفة العمليات بيانا للأشبال عن أحداث الحى ، ويشارك الجميع فى كتابة هذه البيانات وتعليقها مع البيانات الصادرة عن القيادة العامة للقوات المسلحة ، وبذلك يتحول المكان الى مركز تجمع أكبر ، ويصبح أرض معركة يحارب فيها الأشبال اعداءنا بالفكرة والكلمة ، بل وبالحركة والعمل .. وصدر البيان رقم (١) ..

« ان أشبال مصر يرفضون أن يسبقهم أطفال اسرائيل فى ميدان العلم والمعرفة .. اننا سنقاتلهم فى هذه المعركة ونهزمهم فيها بأن نقرأ أكثر منهم ، وندرس ، وتتفوق ، لننتصر فى معركة « العلم » . اننا يجب أن نعبر الى أرض العلم كما عبرنا الى سيناء » .

قرأ الجميع هذا البيان ، وكان الصغار الذين لم يتعلموا بعد ـــ يريدون أن يعرفوا ما فيه ، فجمعتهم لبنى وقد اهتزت لهذا البيان ..

والتف الصغار والأشبال من حولها ، وقرأت لهم البيـــان ، وبدأت تشرحه لهم فى بساطة .. سألتهم ..

ـــ هل تخافون صوت صفارات الانذار ؟

لا ..

ويضحك الصغار ويقلدون صفارة الانذار ، حتى أن بعضهم لم يسمع السؤال الثانى ..

ـــ هل تخشون طائرات الاعداء ؟

ـــ لا .. لا ..

ويسود الهدوء ليسمعوا السؤال الثالث ..

ـــ هل تقلقكم انفجارات القنابل ودوى المدافع ؟

ـــ لا .. لا .. لا ..

تبتسم « لبنى » وتصفق لهم وتقول :

ـــ هذا ما ننتظره من أبناء مصر .. اذا لم تخافوا صفارات الانذار ، وطائرات الاعداء ، وانفجارات القنابل ، ودوى المدافع ،

فأنتم ستتفوقون على أطفال اسرائيل .. أعرف أنكم تريدون أن تحاربوا .. أن تقاتلوا .. أن تحملوا السلاح . وأنتم فعلا تفعلون هذا .. تحاربون . تقاتلون . تحملون السلاح ..

سأل واحد من الصغار : كيف ؟!

قالت : انكم تحاربون حين تكونون أثبت من أطفال اسرائيل . أشجع . ان الذى يخاف وتخونه أعصابه هو الذى سيهزم فى المعركة ..

سألتها صغيرة : نريد سلاحا ..

قالت : معنا السلاح .. انه العلم .. اننا نواجه عدونا كل يوم .. كل ساعة .. كل لحظة .. ونرفض ـ كما يقول البيان ـ ان يسبقنا أطفال العدو فى ميدان العلم والمعرفة .. لا نقبل أن يستذكروا ويدرسوا ويقرؤا أكثر منا .. يجب ان نهزمهم فى هذه المعركة . نعم : لابد ان ننتصر عليهم فى موقعة « العلم » .. كما عبر آباؤنا وأخواتنا الأبطال الى أرض سيناء يجب أن نعبر نحن الى أرض العلم .. ارضنا ، هى أيضا ، منذ أيام أول جامعة فى الدنيا : جامعة عين شمس القديمة ، ثم جامعة الاسكندرية العتيدة .. ومن بعدهما الازهر العظيم ، القائم حتى اليوم كاقدم جامعة فى الدنيا تعيش على الكرة الأرضية . اننا يجب ألا نقل رغبة وارادة عن أطفال العالم المتحضر فى أن نعرف ونتعلم التكنولوجيا ..

وراح الصغار يحاولون ان ينطقوا هذه الكلمة ، ولم يصعب عليهم ذلك ، وانبرى واحد منهم يسأل :

ــ قولى لنا كيف نهزمهم وننتصر عليهم ..

قالت لبنى : يجب أن ينتصر جيشنا على جيشهم .. أن يتفوق عمالنا على عمالهم .. ان تنتج مصانعنا أفضل مما تنتج مصانعهم التى اعطتها لهم أمريكا ، بينما بنينا مصانعنا بعرقنا .. لابد وأن يسبق فلاحونا فلاحيهم ، فنزرع أرضنا الطيبة أحسن مما يزرعون الأرض التى سرقوها من فلسطين العربية .. ومن الضرورى أن تتفوق عليهم ونسبقهم نحن الأشبال فى الدراسة والعلم والمعرفة .. نحن وهم فى معركة يومية ، وامتحان دائم ، ومنافسة مستمرة ، ويجب أن يكون لنا اكتوبر ليستحق كل منا لقب شبل أو طفل بطل .. اننا لابد ..

وفجأة سمع الأشبال صرخة ، وأقبلت امرأة عجوز تجرى وتقول : شبت النار فى فرن الحاج شعبان .. وحاول الأشبال أن يتركوا أماكنهم ، ولكنهم سمعوا صوت « شبل » يقول فى حزم :

ــ فليبق كل فى مكانه .. لا أحد يغادره .. جمال فقط .. انه أسرعنا ، يذهب ليأتى لنا بحقيقة الأمر .

وقبل أن ينهى شبل عبارته ، كان جمال يسابق الريح .. وواصل شبل تعليماته ..

— « محمد فريد » ، اذهب لتكون بجانب تليفون الحاج محمود لتبلغ رجال الاطفاء بالأمر .. انت تعرف رقم تليفونهم ؟

— طبعا .. وسأبلغ الاسعاف أيضا ..

ونهض « محمد فريد » الى الدكان .. وأضاف شبل :

— يجب ألا تتجمعوا عند مكان الحريق .. بل عليكم ألا تسمحوا لأحد بالوصول اليه .. الا شباب الدفاع المدنى .. سنضرب حصارا من حوله حتى لا يدخل أحد بلا ضرورة .. انه يصبح عبئا على رجال الاطفاء ، والدفاع المدنى .. والتزموا الهدوء و ..

وكان جمال قد عاد ليعلن أن الخبر صحيح .. وأدار « محمد فريد » قرص التليفون ، وشبل يقول لجمال :

— اذهب وابلغ الدفاع المدنى عند أطراف الحى .. وهيا نحن يا أشبال نضرب نطاقا حول المكان من بعيد ..

وعندما أقبل رجال الاطفاء وشباب الدفاع المدنى لم يجدوا الازدحام المعروف عند الحرائق ، واستطاعوا فى لحظات قصيرة ان يطفئوا النار ، وكانت السرعة التى أبلغوا بها وقلة الزحام سببا فى نجاحهم ، ولم يصب الا عاملان اصابات طفيفة ، وحملتهما الاسعاف ..

وبعد ان انتهى رجال الاطفاء من عملهم ، تقدم قائدهم يسأل :

ـ أريد أن أعرف اسم الشبل الذى أبلغنا بالحريق .. قال انه من آشبال ٦ آكتوبر .. أين هم ؟ !

كان الأشبال قد اصطفوا بانتظام عند مدخل شـــارع الفرن يصفقون ويحيون رجال الاطفاء ، وبنظرة واحدة عرفهم قائد الاطفاء فمد يده يحييهم شبلا شبلا ، ويشكرهم ، ويقـــول : انهم أدوا واجبهم ببراعة ، وأنهم احسنوا التصرف .

وتبادل الأشبال نظرات التهنئة ، وعاد كل منهم الى موقعه ..

وذهب صالح الى العم محمود ، وقال له :

ـــ ان حريق الفرن قد يتسبب فى نقص كمية الخبز فى الحى يجب أن يكون دكانك بديلا عن الفرن فى توزيع الخبز ..

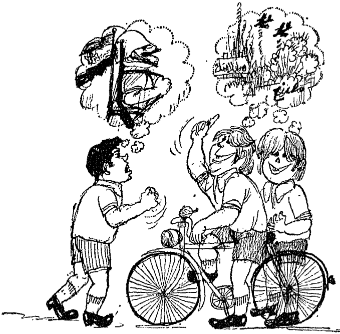
رد العم محمود : لم نتنبه لهذا الأمر الهام .. شـــكرا لك يا صالح .

ـــ اما ان نحرس لك الدكان وتذهب أنت لتحضر الخبز من فرن فى الحى القريب .. أو نذهب نحن لنأتى لك بالخبز ..

ـــ من الأفضل أن يذهب اثنان منكم فى هذه المهمة .. ولكم أن تستخدموا دراجتى .. وهاهو ثمن الخبز .

وذهب شبلان وعادا بالخبز .. ولم يشعر أهل الحى بأى نقص فى الخبز الى أن بدأ الفرن يعمل من جديد ..

– ٣ –



مع أول خبر للعبور تم تشكيل كتيبة أشبال ٦ اكتوبر ، وكانت البداية شبل وشقيقته ، وتجمع من حولهما كل أبنـــاء الحى ، ليعملوا ويناضلوا من أجل مصر .. أما أبناء « الحى الغربى » ، فانهم ترددوا بضعة أيام قبل أن يتحركوا ، وانتظروا فترة اكتفوا فيها بمتابعة الأخبار فى قلق ، وكأنهم لا يصدقون ما يحدث على أرض القناة ، وسيناء ، والجولان .. وكانت أخبـــار تحركات الأشبال وأعمالهم تنتقل بسرعة البرق الى كافة الأحياء المجاورة

فى المدينة الكبيرة ، وبدأت كتائب عدة تتشكل فى أنحاء متفرقة وشعر أولاد « الحى الغربى » بالغيرة من الأشبال ، وهم ينافسونهم فى أمور كثيرة ومجالات عدة .. لذلك سارعوا بتكوين جماعة منهم ، وان اختلفوا حول تسميتها ، واختلفوا حول من يرأسها ، واختلفوا حول أهدافها وأعمالها ونظمها .. وخطر لهم أن يقوموا بزيارة ، فى صورة مظاهرة لموقع أشبال ٦ اكتوبر .. بداية للنشاط وفرصة لنقل بعض أفكارهم وتقليدهم .

وذات صباح اتجه أولاد « الحى الغـربى » على دراجاتهم الأنيقة ، يحملون لافتات عريضة ، ويلوحون بأعـلام جميلة ، ومضوا فى الشارع الرئيسى فى طريقهم الى موقع عمل أشـبال ٦ اكتوبر ، فى الساحة الصغيرة أمام دكان العم محمود .. وكان بعض الناس يحيون هذه المظاهرة بالتلويح بالأيدى أو التصفيق وشعر الأولاد بالفخر والزهو لهذا .. وعندما وصلوا الى الساحة الصغيرة استقبلهم « محمد فريد » ، ورحب بهم ، وطلبوا اليه ان ينقل الى الأشبال رغبتهم فى اللقاء للتحدث عن التعاون .. وقال واحدمنهم : ان فى مقدور الأشبال ان ينضموا اليهم ، لأن امكانياتهم فى العمل أكبر ، لديهم دراجاتهم ولديهم بعض المال ولديهم وقتا فسيحا .. فليس بينهم من يبيع الصحف مثل شبل ، وليس منهم من يعمل بأجر ، بل انهم جميعهم متفرغون للعمل الوطنى .. وقـد رد محمد فريد على الفكرة بحزم وحسم :

— ان كل عملنا وطنى . ولا رغبـــة لنا فى أن تنضم الى أحد !

ارتفعت أصوات متناثرة من جماعة « الحى الغربى » القادمين لم يستطع فريد أن يميز بينها ، فقد اختلطت وتداخلت بحيث صعب عليه ان يتابعها أو يسمعها ، فآثر السكوت الى أن يهدأ الجميع ، ويجدوا من يعبر عنهم .. وعندما سكتوا قال لهم :

— كيف يمكن ان تتعاون معكم وآراؤكم مختلفة متباينة متفرقة ؟ !

رد أحدهم : اننا أحرار ، وكل منا يعبر عن رأيه ، وهـــذا من حقه .

ابتسم محمد فريد ، ولم يعلق .. انه يعرف الفارق بين الديمقراطية والحرية ، وبين أن تتوزع الآراء وتختلف على هـــذه الصورة .. واطلق فريد صفارة متقطعة ، ذات نغمة معينة ، وقبل ان تمضى دقيقة واحدة كان يقف بجانبه ثلاثة من الأشبال ، نقل فى ايجاز مطالب جماعة الحى الغربى .. قال جمال فى هدوء :

— اننا سنجمع الأشبال ونناقش الأمر ونبلغكم بقرارنا قبل ظهر اليوم .. اتصلوا بنا فى تليفون العم محسود .. أو تعالوا غدا

مضت الجماعة فى مظاهرتها الصاخبة ، تحمل لافتاتها الملونة ، وتلوح بالأعلام ، ولم تحظ بكثير من اهتمام حى الأشبال ، بل لم يتحدث عنهم أحد .. وعندما انتهى شبل من بيع الصحف ، التقى بزملائه ، وأبلغوه بما حدث ، وبالعرض الذى جاء به أولاد

الحى الغربى .. كان شبل يعرفهم جيدا .. زامل بعضهم فى المدرسة ولعب الكرة مع البعض الآخر ، وناقشهم وتحدث اليهم كثيرا .. وقد استعرض شبل فى ذاكرته مناقشاته معهم وأحاديثهم ، التى كان يبرز فيها الخلاف فى الرأى ، وكثيرا ما اشتد الخلاف الى درجة قد تدفع للتماسك بالأيدى ، لولا هدوء شبل وحكمته . . وهو لا ينسى انه قاطعهم وتوقف عن التعامل معهم فى أواخر عام ٧٢ ، بسبب فكاهاتهم السخيفة ونكاتهم البذيئة فى أمر ليس مجال فكاهة ولا هو موضـــوع للضحك .. رفض سخرياتهم وكلماتهم المريرة ، وقال يومها باصرار :

ـــ لن أتعامل معكم .. هذا قرار .. وقرار حاسم !

واذا بهم يتطاولون على كلمته وعلى قراره .. ويضحكون من حسمه ، وحزمه .. بل يتمادون فى الحديث عن « الحسم » الأمر الذى أغضبه ، وجعله يرفض أن يتعاون معهم .. غير أنه كان بين الحين والآخر يضطر الى الدخول معهم فى الحوار ، ايمانا منه بأن المعركة ستنشب يوما ما ، وبأنه لابد من « الصبر والصمت » الى أن نختار توقيتا مناسبا ، وكانت ثقته كبيرة فى القيادة الوطنية وفى أنها لا يمكن أن تفرط فى حبة رمل من أرضنا ، ولا فى أى حق من حقوقنا .. كانوا يقولون :

ـــ لابد من حل سلمى ..

يرد شبل: بل ، لابد من المعركة . لقد اتخذ الشعب قراره فى هذا .

— ان عبور القناة مستحيل ..

— لا شيء يستحيل على شعب يريد أن يحرر أرضه .

— سنفقد نسبة كبيرة من رجالنا اذا حاولنا أن نعبر القناة .. أكبر عائق مائى فى التاريخ .

يسكت شبل قليلا ، قبل أن يقول فى هدوء :

— منذ أيام كانت لنا وقفة بمناسبة بداية العام الخامس للنكسة خمسة يونيو !

ويسخر واحد منهم : هل احتفلتم بها ؟ ! .. ويضحون بالضحك .

يواصل شبل حديثه كأن أحدا لم يقاطعه .. ويقول :

— لقد أذاعت « أبلة فضيلة » برنامجا يوم ٥ يونيو ١٩٧١ قالت فيه بالنص :

« على ضفاف القنال وقف ملايين الأشبال .. من بور سعيد الى الاسماعيلية الى السويس .. بطول الشط ، وقفوا ، وفى يد كل منهم طوق .. يشبه الرقم خمسة .. وفجأة دفع كل شبل طوقه .. دفعه بقوة وعنف وشجاعة وبسالة .. كل الاطواق اندفعت كأنها عجلات كبيرة لعربات رمسيس الحربية : الأطواق عبرت القناة .. الأطواق تلف بسرعة .. مست الأطواق سطح القناة ..

---

(١) مجلة اذاعية قدمها المؤلف فى ركن الطفل فى الاذاعة فى ٥ يونيو ٧١ .. ننتقل عنها حرفيا .

وقاطعه أحدهم : لابد أنها احترقت .

وأضاف الثانى : ان اسرائيل ستغطى مياه القناة بمادة شديدة الالتهاب تحرق كل محاولة للعبور .

استمر شبل فى نقل ما سمعه من الاذاعة ..

ـ وصلت الأطواق الضفة الشرقية .. انها بالألوف .. ألوف الخمسات تمضى ومحاولات يائسة من العدو لوقفها .. انهم يضربونها بالرصاص بالقنابل .. بالمدافع .. بالصواريخ .. انها تبدو كأنها مسحورة .. فيها شيء لله .. لا تؤثر فيها كل هذه الأسلحة .. لقد بدأت « تفرم » خط بارليف وتخترقه وتمر منه كالسهم .. وكل شيء تدوسه تجعله فى مستوى الرمال .. بل تدفنه تحت الرمال .. وتدور العجلات وتلف الخمسات فوق أرض سيناء ، وتدمر كل ما هو عدو للأرض للعرب ، لمصر .. وتطهرها من كل غاز غادر دخيل . من كل شيء لاسرائيل .. وترفع أعلامنا على القنطرة .. بل وتمضى وتمضى وتمضى .. »

ابتسم أولاد الحى الغربى ، وعلق أحدهم : يا للاحلام .. يا للأوهام ..

صرخ فيهم شبل : أقسم أننا سنحولها الى واقع وحقيقية ..

قال أحدهم ببساطة : اننا لن نحارب ..

رد شبل : بل سنحارب كما حاربنا معارك الصمود والردع والاستنزاف ..

عقب أحدهم : أتسمى هذه حروبا ؟ !

قال شبل : نعم .. كنا نحارب أيام الصمود بيد ، ونبنى بالأخرى قواتنا المسلحة .. هل نسيتم محاولات العدو فى يوليو ٦٧ عندما زحف على رأس العش ، وتحطمت هجماته على صخرة صمودنا ؟ .. كان هذا اختبارا لنا ، واثبت جنودنا قدرتهم على القتال فى أول فرصة سنحت لهم ، وفوتنا على أعدائنا أغراضهم .. ما رأيكم فى معركة « رأس العش » ؟ !

سكت أبناء الحى الغربى ، وان كان بعضهم قد أعلن أنها كانت انتصارا كبيرا فى ظروف قاسية .. وواصل شبل حديثه :

— هل نسيتم ٢١ اكتوبر ٦٧ واغراق ايلات ؟ !

رد أحدهم : لقد أحرقوا معامل تكرير البترول فى مقابل هذا ؟ !

قال شبل : فليكن ان قائدهم كان ينتظر بجانب التليفون أخبار استسلامنا ، فاذا به يسمع خبر اغراق أكبر سفينة فى أسطولهم .. كم يساوى هذا ؟ ! .. لا حرب بلا تضحيات .

رد واحد منهم : نحن نوافقك على أنه لا حرب بلا تضحيات لكننا نخسر الكثير ..

قال شبل : ليست خسارة فى مصر ان نضحى بكل شىء .. كنا أيام الصمود ندافع فحسب ، ونصد هجمات العدو .. وبدأنا الردع ، والرد عليه بضربه ، وما استطاع جندى عدو أن يطل

برأسه من مخبئه .. وفى ثمانين يوما من حرب الردع دمرنا ثمانين بالمائة من خط بارليف ..

سأله أحدهم : لماذا توقف الردع ؟

أجاب شبل : لم يتوقف .. بل تطور الى استنزاف .. وعبر اليهم أبطالنا واقتحموا عليهم مواقعهم وقاتلوهم وأسروهم ، هل تذكرون بطولات الجزيرة الخضراء وشدوان؟ هل تذكرون ضفادعنا البشرية واغراقها لثلاث قطع بحرية فى ميناء ايلات ؟ هل تذكرون ديسمبر ٦٩ والفانتوم يتساقط كالذباب ؟ !

قال واحد منهم : لقد ضربوا أطفال بحر البقر وعمال مصانع « أبو زعبل » ..

رد شبل : لا حرب بلا تضحيات .. كما قلت .

قال آخر : لكن الحرب توقفت .. وقبلنا مشروع روجرز .. الحل الأمريكى !

قال شبل : لم يكن ذلك حلا .. بل كان مجرد وقف لاطلاق النار ..

عقب أحدهم : وما زالت النيران لا تنطلق .. وقد لا تنطلق مطلقا .

رد شبل : اننا فى مرحلة التخطيط والتجهيز والاعداد والتدريب .

قال ثالث منهم : مهما خططنا فلن نستطيع عبور القناة .

أضاف رابع : واذا تمكنا من العبور هناك الساتر الترابى .

وضحك أحدهم وهو يقول : يا ساتر !

وقال رابعهم : ثم هناك خط بارليف الجديد .. أفظع من الأول بمراحل .

وأضاف الثالث : ولا تنسوا أن معهم أمريكا .

رد شبل : ونحن معنا الله .

* * *

تذكر شبل هذا الحوار ، وغيره — ولم ينس أنه حين التقى بأبناء الحى الغربى فى آخر أيام عام ٧٢ لكى يتبادل معهم التهنئة بمناسبة العام الجديد ، وقال له أحدهم :

— ها هى سنة أخرى تمضى وتضيع ..

سأله شبل : من قال انها ضاعت ؟

سألوه : هل ما زلت تصدق اننا سنحارب ؟

أجاب شبل : نعم ..

قال آخر : ربما ترضى عنا أمريكا بعد الاستغناء عن الخبراء .

رد شبل : اننا لم نستغن عنهم لنرضى أمريكا أو غير أمريكا .. بل لنكون أحرارا فى اتخاذ قرارنا الوطنى ..

ودار نقاش طويل .

ثم ارتفع صوت « أبلة فضيلة » تقدم برنامجها .. كانت تتحدث بصوتها الحلو الحنون ، فاجتذب أسماعهم ، وصمتوا جميعا لكي يتابعوها وهي تتحدث عن هدية أتى بها العام الجديد .. هي ٣٦٥ يوما : أي السنة الجديدة .. عام ٧٣ .. كانت تتحدث عما ينتظر أبناءنا خلالها .. سيحتفلون بداية بعيد الطفولة في ١٥ يناير .. وراحت تتكلم عن بقية شهور السنة ، وغفلوا عنها قليلا الى أن توقفت عند شهر أكتوبر الذي سيصل بعد تسعة شهور ، وقالت (١) :

« في أول اكتوبر سنحتفل بعيد العلم ..

وفي أكتوبر ، عام ٥٦ كانت هناك معركة سنذكرها ، ونذكر العدوان الثلاثي ، ونذكر صوته من فوق مبنى الأزهر وهو يقول :

— سنقاتل .. سنقاتل .. سنقاتل

ونعلن أن هذه الكلمة ستكون شعارنا الى أن نحرر كل أرض العرب ونوحدها ، ان لنا في أكتوبر ذكريات نضال على القنال عام ١٩٥١ وعام ١٩٥٦ ، نضال أبطال ضد قوى احتلت أرضنا .. وتواريخ انتصاراتنا وأعيادنا كثيرة ، لكن لن يكون هناك انتصار ، ولن يكون هناك عيد أعظم وأروع من الانتصار على هؤلاء الذين

(١) نص قدمه المؤلف في برنامج اذاعي للاطفال في آخر يوم من عام ٧٢ .. بمناسبة عيد رأس السنة .

يحتلون أرضنا .. سوف يكون يومها عيدا كبيرا . أخلد . ونسأل أنفسنا :

— هل سياتى هذا العيد وهذا الانتصار عام ٧٣ ؟

نرجو . ندعو . نتمنى . انه شىء ليس بمستحيل ، لأن اصرار شعبنا على النضال استطاع أن يحقق المعجزات .

يارب . يا من وهبتنا مع عام ٧٣ هـدية الـ ٣٦٥ يوما ، نريد هذا اليوم بالذات . اليوم الذى فى خاطرنا اليوم الذى يريح بالنا . اليوم الذى يحقق آمالنا .. اليوم الذى نقدر فيه على رفع رؤوسنا ونقول فيه لأولادنا .. أرضنا رجعت لنا . كرامتنا عادت الينا .. علمنا يرفرف على سيناء » .

انفعل شبل لهذه الكلمات ، ووجد لها فى نفسه صدى عميقا ، ورفض ان يستمع الى تعليقات أبناء الحى الغربى ومضى والدموع تكاد تطفر من عينيه ، فى حين أنهم لم يتأثروا بما سمعوه ، بل ان بعضهم لم تعجبه الكلمات .

* * *

تذكر شبل كل هذا . وتذكر أيضا آخر لقاء له مع أبناء الحى الغربى ، قبل المعركة بأيام قليلة ، وقال له واحد منهم :

— « لعلكم تلاحظون أنى لم أتحدث عن المعركة » .. طبعا ليس عندنا ما نقوله .. أهذا بلد يخوض معركة ؟ ! .. تصور لم

أجد فى الصيدلية (شاش) .. ليس فى الجمعيات مواد تموينية .. ليس هناك ..

قاطعه شبل يومها قائلا : ومع ذلك سنخوض المعركة .

كان الأشبال يناقشون موضوع رغبة أبناء الحى الغربى فى التعاون ، بينما شبل يفكر فيما قالوه وفعلوه ، ان مواقفهم السابقة لا تبشر بخير ، فكم من مرة استعاروا منه المجلات ولم يعيدوها اليه ولم يدفعوا ثمنها ، كما أنه رآهم ذات يوم وهم يلعبون الورق وهو يكرهه ويضيق بمن يلعبونه .. انه يعرف عنهم أنهم يحبون « الممنوعات » ويسعدهم كثيرا ان يخرجوا على العرف والتقاليد ومع كل ذلك فانه كان من أصحاب الرأى الذى ينادى بضرورة التعاون معهم .. لابد أن السادس من أكتوبر سيغير منهم ، ومن تصرفاتهم .. ووافقت الأغلبية بين الأشبال على هذا الرأى .

وعند قدوم أبناء الحى الغربى فى اليوم التالى قابلهم شبل .. وجلسوا اليه ، ومال عليه واحد منهم وهمس فى أذنه :

ــ اننا نرجو أن تنسى ما كان .. ونرجو ألا تذكر للأشبال أننا لم نكن نصدق اننا سنحارب !

ضحك شبل وقال :

ــ لا تقلقوا لهذا .. ان الرئيس لم يكن يريد أن يصدق العالم كله ، واسرائيل بالذات ، أنه سيحارب .. لتتم المفاجأة !

سأله هامسا : هل كان يريد منا أن نصدق أو لا نصدق ؟ ! .. ان صدقناه انكشفت الخطة ، وان لم نصدق يخرج الشباب والطلاب فى مظاهرات قاسية ..

ابتسم شبل : هذه هى عبقرية القائد .. اننى أومن بالقائد أنور السادات منذ قرأت عبارة للزعيم الخالد عنه تقول « انه عبقرية عسكرية » .

همس الضيف : نرجو ألا تحرجنا ، وتفتح حديث الماضى .. كنا مخطئين !

قال شبل بصوت مرتفع : عفا الله عما سلف .. ولنفتح صفحة جديدة بشرط ..

سأل أحدهم : ما هو الشرط ؟ .. ان تكون انت قائد المجموعة؟

أجاب شبل : لا لا .. الشرط ألا تعودوا الى عادتكم القديمة لقد عبرنا القناة .. وازلنا الساتر الترابى .. وحطمنا خط بارليف.

رد واحد منهم : ديان يقول : ان خط بارليف يشبه الجبن « الجوبير » به من الثقوب أكثر ما فيه من الجبن ..

قال شبل : أنا لا أعرف الجبن « الجوبير » هذا ..

أضاف آخر : أنت تراه فى أفلام ميكى ماوس .. الجبن الكثير الثقوب الذى يحبه الفأر ميكى ماوس .

عقب شبل : أءنا لا أحب أفلام « ميكى ماوس » هذا .. كنت أقول انى لا أعرف الجبن « الجوبير » لكن الذى أعرفه أن الذين

يأكلون « الجبنــة القريش » هم الذين أكلوا خط بارليف . . التهموه !

هتف بعض الأشبال والضيوف : الله .. !

وأكمل شبل حديثه : ثم ان خط بارليف لم يكن هو الذى به من الثقوب أكثر مما فيه من الجبن .. انما الجيش الاسرائيلى هو الذى به الثقوب ، وفيه الجبن أيضا !

ضحك الجميع ، بل ان بعضهم صفق لكلمات شبل .

وبدأ أبناء الحى الغربى يطرحون الكثير من الأسئلة ..

ــ ما أخبار الجولان ؟ نحن قلقون ..

ــ هل ستتدخل أمريكا ضدنا ؟ اننا نخاف من هذا .

ــ لماذا توقفنا عن الزحف فى سيناء ؟!

لم يرد شبل على أسئلتهم ، وطالبهم بأن يكفوا عن القيــام بدور الجنرالات العسكريين ، وكبار السياسيين ، وقال انهم يجب ألا يتنازعوا مثل قادة اسرائيل .. ان أشبال مصر كبروا على مثل هذه المنازعات !!

ان أبناء الحى الغربى لم يعرضوا أن يكونوا القادة ، أو ان ينضم اليهم الأشبال ، فان العمل يجتذبهم وينسيهم هذه الأمور الشخصية والخاصة .. وقد اقترح واحد من الأشبال أن يمضوا جميعا الى شارع قصر العينى ، واختاروا ان يقفوا عند دار الأدباء حيث مقر جمعية ثقافة الأطفال ، وذلك لتحية الرئيس القائد البطل

وهو فى طريقه الى مجلس الشعب يوم خطابه التاريخى فى السادس عشر من أكتوبر ، سأل أحد أولاد الحى الغربى :

— هل نذهب ونقف على الأرصفة ؟

— نعم ..

— اننا متعلمون مثقفون .

— لاننا متعلمون مثقفون يجب ان نفعل هذا ونقف مع الجماهير ..

وأضاف شبل آخر : هذا حقها وحقه علينا .. يجب أن نذوب فى الجماهير ..

ومضوا جميعا ، وأذهلهم أن يمضى الرجل وسط المعركة فى سيارة مكشوفة وسط عاصمة الملايين الستة .

ويسأل واحد منهم : أين هو ؟ !

يرد آخر : فى قلبها .

ويصفقون ويهتفون لابن « ميت أبو الكوم » .. لرمز الصبر والصمت .. لرمز العبور والاقتحام .. ويسمعونه وهو فى قمة انتصاره يعرض « السلام » .. وكان صوت مصر يصل الى قلب تل أبيب ليخلعه ، وأصوات الأشبال بين الجماهير مدوية ، تحييه بعد الخطاب كما حيته قبله قائدا للنضال والمعركة .

وعاد الأشبال الى مواقعهم وهم أكثر تصميما وعزما على مواصلة الكفاح . .

— ٤ —



كانت أخبار أشبال ٦ اكتوبر تفوح فى المدينة كالعطر .. وظهرت كتائب جديدة فى الحى الغربى والشرقى ثم فى الأحياء الشمالية والجنوبية .. وتناقل الجميع أنباء أبناء أحبوا مصر وراحوا يعملون من أجلها .. وكان رائعا من الأشبال أن يصدروا بيانات ، يقلدون فيها بيانات القيادة العامة للقوات المسلحة .. كل منهما يحمل انتصارا ، فهو ينقل رسالة من الجبهة ، أو يقدم حديثا مع مقاتل وتنوعت البيانات ، وتلونت ، وصارت النافذة التى يطل منها أهل

الحى على القتال الدائر فى سيناء والجولان ، وعلى الجبهة الداخلية الصامدة الصلبة الرائعة ..

ولم يكن فى استطاعة الكبار أن يلحظوا شبلا بذاته فى عمل من الأعمال ، انهم يتناوبون فى تحمل كل المسئوليات ، فى تعاون ، وكل منهم ينكر ذاته ، ولا يتحدث عن نفسه فقط .. ترتفع صحيفة الحائط الجديدة ، ويسارع الجميع بقراءتها ، فلا يجدون فيها اسما لشبل واحد .. انها لا تحمل اسم من يلتقط الأخبار ، أو يكتب الأحاديث ولا يعلن فيها عن الخطاطين والرسامين بل ، ليس لها رئيس تحرير على أن أبناء الحى جميعا قد عرفوا جهود « شبل » وادركوا انه يحرك المجموعة فى نشاط وهدوء وحزم ، ولم يغفل يوما عن بيع الصحف ، ولا عن قضاء ساعات طويلة فى « غرفة العمليات » .. يعمل ، ويبتكر لزملائه الأشبال ما يعملونه .

وعندما تناقل الناس أخبار تسلل الدبابات المعادية من منطقة البحيرات المرة ، لم ينزعج الأشبال ولم يقلقوا .. وانما أصدروا بيانا قالوا فيه(1) :

« تحية لكم فى مواقفكم ياحماة بلدنا ، وسط معارك اللهيب والنار .. يامن تدافعون عن ثورة ٢٣ يوليو ، وما بنته .. يا من تدافعون عن حمام دنشواى وقبر مصطفى كامل .. يا من تدافعون عن ذكرى محمد كريم وعمر مكرم .. عن الأزهر والألف مئذنة .

(1) من رسالة بعث بها « هشام يوسف » للاذاعة خلال حرب اكتوبر وقدمتها اذاعة الشرق الاوسط .

يا من تحاربون من أجل المحاسبة على مكاسب الفلاحين وعن ٩ سبتمبر وقانون الاصلاح الزراعى .. ومن أجل أن يمضى مصنع الحديد والصلب قلعة الصناعة ـ فى عمله هو واخوته الصغار : مصانع كفر الدوار والمحلة وأبو زعبل .. يا من تحمون مكاسب عمالنا فى هـذه المصـانع ومصـانع ميت غمر وشـبين الكوم والحوامدية وبنى سويف ، وليظل العمال أعضاء مجلس ادارة يا من تقاتلون لكى تحموا سدنا العالى ، منبع الكهرباء ، ورمز ارادتنا القوميـة وعزتنا الوطنية .. ولكى تحموا بحـيرة ناصر وأسماكها وثروتها . . ولكى تحموا الأبراج التى تحمل لنا الضياء والطاقة .. يا من تدافعون عن رغيف العيش لكى يظل ثمنه نصف قرش ولكى يظل هناك مكان لكل طفل فى بحر البقر فى مدرسة القرية ، ولكى يواصل هذا الطفل تعليمه الى الجامعة .. ولكى يكون لكل منا عمله بعد أن يكبر ، وليكون له سريره فى المستشفى اذا مرض وليكون له تأمين لحياته عندما يكبر سنه .. انكم أبطال تدافعون عن اذاعتنا : هنا القاهرة ومحطة القرآن الكريم .. ونشرة أخبار الثامنة والنصف .. وبرنامج أبلة فضيلة والعم حسن .. وتدافعون عن صوت أم كلثوم وهى تشدو : والله زمان يا سلاحى وتدافعون عن الكتاب : والقرآن وعن كل ديوان شعر .. وكل قصة كتبها توفيق الحكيم ونجيب محفوظ وكامل كيلانى .. هيا .. قاتلوا .. أشبالكم وراءكم يحمون ظهوركم . . انهم صف ثان سيتقدمون من خلفكم على طريق النصر .. وتحيا مصر » .

اهتز كل الحى لهذا البيان ، ونقله عنهم أبناء الأحياء المجاورة وراح كل شبل وطفل يفكر فى عمل ما من أجل مصر .. وهم يتبادلون هذه الأفكار .. وكان اشبال ٦ أكتوبر قد عقدوا فيما بينهم اجتماعا ، ناقشوا فيه ما الذى يمكن أن يفعلوه مع الأطفال الصغار .. وهم يريدون أن يعرفوا شيئا مما يجرى فى بلادهم .. كما أن الدراسة توقفت ولم يعد أحد منهم يتعلم الحروف والأرقام .. وقرر الأشبال أن يجمعوا أطفال الحضانة ، والسنة الأولى الابتدائية .. وعلى لوحة خشبية سوداء ، وببعض أصابع الطباشير بدءوا يعلمون الصغار الحروف .. وكان الأطفال يريدون أن يكتبوا كلمات من تلك التى يسمعونها .

سأل حمادة : كيف تكتب كلمة (عبر) ..

وضحك شبل من أشبال ٦ أكتوبر .. وبدأ يعلم الوطنى الصغير الحبيب الحروف الثلاثة .. ع .. ب .. ر .. واذا بالصغير يتقنها بسرعة الا أنه كان لا يضعها فى ترتيبها الصحيح .. فيكتبها ع . ر . ب . ويضحك الشبل ، ويقول للصغير :

— هذه ليست (عبر) .. بل (عرب) ..

ويقفز الصغير مصفقا بيديه فى فرح وابتهاج ، ويقول :

— انى كنت أريد أن أتعلم كتابة هذه الكلمة .. عرب .. من الذين عبروا ؟ ! .. انهم : عرب .. من الذين حاربوا فى .. فى .. ما اسم الهضبة التى يدور فيها القتال فى سوريا ؟

ويجيب الشبل : هضبة « الجولان » . .

يضيف الصغير .. من الذين يقاتلون فى الجولان ؟ ! .. انهم : عرب .. من الذين عرفوا أن البترول سلاح فى المعركة ، لا بد أن يضىء لنا ويحرق أعداءنا ؟ ! انهم : عرب .. كنت أريد أن أتعلم كلمة (عرب) لأننا عرب ..

من أجل هذا كان الأطفال والأشبال يتابعون أخبار الجولان وقطع البترول عن أعدائنا ، فالشبل يعرف أن البترول يوضع فى الفانتوم لتضرب أطفال بحر البقر وعمال أبى زعبل .. ويعرف أنه يوضع فى الدبابات التى تطلق علينا نيرانها وتقذفنا بقنابلها . . ويترك الصغير الفرصة لكى يتدرب على كتابة الحروف الثلاثة .. واذا بالصغير يجد أنه من الأسهل له أن يبدأ بحرف الراء ، واذا بالكلمة تصبح (رعب) .. ويقرأ الشبل الكلمة للصغير قائلا :

ـ هذه الكلمة (رعب) .. ومعناها الخوف الشديد .

ومرة أخرى يقفز الصغير ويصفق بيديه .. ويقول :

ـ وهذه أيضا كنت أريد أن أتعلمها .. اننا عندما عبرنا ، عدونا خاف وعاش فى (رعب) .. ويقهقه الشبل ، أن الصغير يعرف الكثير .. ويقول الكلام الكبير .. كأنه يدرك كل شىء ، وكأن المعركة قد جعلت منه « شبلا » ويحاول الشبل أن يعلم الصغير الحروف من جديد .. ويبتهج باللعبة ، فانها مثيرة حتى للكبار ويجرب (حمادة) الحروف ، واذا به يخطىء ، ويكتبها بشكل آخر .. يكتبها (برع) .. وهنا يضحك الشبل من جديد ،

ويقول :

— لا يا حمادة . هذه « برع » .

ويسأل حمادة : وما معناها ؟ !

يقول الشبل : معناها اجتهد .. مثل برع حمادة فى معرفة الحروف الثلاثة .. أى أنه أصبح مجتهدا فى معرفتها وكتابتها .. لكن حماده ما « برع » فى ترتيبها !

يضحك حماده : لأن هذا المثل ليس طريفا .

قال الشبل : قل لى أنت مثلا طريفا .

قال حماده : (برع) الجيش المصرى فى القتال .. (برع) الجيش السورى فى الحرب .. (برع) الجيش ، و (عبر) نعم .. عبر (عرب) مصر القناة .. وجعلوا جيش اسرائيل يعيش فى (رعب) .

وراح الشبل يضحك ، ويضحك الى أن سمعه (أشبال ٦ أكتوبر) واقبلوا لكى يستطلعوا الأمر ، واذا بهم يضحكون .. ويتذكرون كيف كان آباؤهم وهم فى هذه السن يخطئون فى كتابة كلمة (زرع) .. وكيف ضاقوا بها ، وطلبوا أن يتعلموا كلمة (صنع) .

واستطاع الآباء أن يزرعوا عشرات المصانع ، ترتفع مداخنها عالية ، بجوار علم مصر الذى يرفرف من فوقها .. كما رفرف أخيرا على (سينا) .. وهاهم الصغار يتعلمون (عبر) .. بقى أن يعرفوا أننا كتبنا حروف هذه الكلمة بالدماء التى سالت فى القناة

وعلى رمال سيناء .. لذلك لابد وأن نكتبها فى المزارع .. فى المصانع فى الشوارع .. أكتب يا صغيرى (عبر) .. واكتب يا تاريخ .. آه .. نسينا أن نعلم الصـغار الأرقام .. نعلم ، فلنعلمهم أن الله واحد .. وأن الأرقام تتوالى ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ..

ويقفز شبل .. ويقول :

— دعوا الأرقام الآن .. عندى حكاية رائعة عنها .. سأجدها ، لننشرها فى صحيفة الحائط .

ونشروا قصة الرقم (٥) التى حكيناها لكم ..

ولم تكن هذه هى القصة الوحيدة التى حكتها لهم لبنى .. بل كان عندها وعند شبل عشرات القصص .. بينها قصة أمريكيـة للأطفال ، حديثة ، مطبوعة عام ١٩٧٢ تحكى قصة مهر صغير كان سعيدا جدا بالحياة ، ولكنه حزين لأنه غير قادر على أن يقفز عبر قناة فى حقل صاحبه .. كان كل مرة يحاول يسقط فيها ، لذلك خاف تكرار المحاولة .. الى أن رقد يوما على حافة القناة ، واذا به يرى فى الأحلام أنه قد نبت له جناحان استطاع بهما ان يحلق ويطير .. وقد راح يطير هنا وهناك ، وضايقته ذبابة ايقظته من نومه وحلمه ، ولكنه مضى الى القنـاة ، وفى يقينه أنه يستطيع بواسطة جناحين أن يعبرها ، وانطلق نحوها ثم قفز قفزة عالية رائعة .. ها قد عبر .. وتلفت يبحث عن جناحيه فلم يجدهما (١)

(١) قصة « فليب » بقلم ويسلى دينيس صدرت فى نيويورك عام ١٩٧٢

وصفق الصغار لهذه القصة ، وعلق واحد منهم :

— ظريف ان يتعلم الأطفال فى أمريكا حكاية عن العبور .. انها حكاية جنودنا بالضبط .

وتناقل الصغار قصة الحصان الطائر العابر ، وأحبوها كثيرا .. ان الكثير من قصص أطفالنا العربية تحكى عن حصان طائر عابر !

وقد استعانت لبنى فى عملها مع الصغار بحصيلة القصص والحكايات التى يحتفظ بها شبل فى غرفة العمليات .. لقد كان من هواياته جمع ما يعجبه ، ونقل بعضه فى كراساته .. كما أن الصحف والمجلات كانت حافلة بأروع صور للبطولة والفداء ، وقد التقطها المراسلون العسكريون فى الجبهة لجنودنا الأبطال الذين قاتلوا ببسالة منقطعة النظير ، وحاربوا فى شجاعة مذهلة .. وكان الصغار يطربون لقصص البطولات الداخلية من المدنيين والشباب ، واستوقفتهم قصة حدثت فى قرية من قرى محافظة المنصورة .. قرية فى مركز دكرنس .. رواها لهم شبل ، وكتبها فى صحيفة الحائط بعنوان « منعطف الطريق » .. قال .. (١)

سمع الفلاحون صوت الطائرة ، ومنذ وقت بعيد وهم لا ينزعجون لأزيزها ، ولكنهم ذهلوا لأنها تقترب من الأرض .. تقترب من قريتهم بالذات .. يا الهى .. ماذا حدث ؟؟ لماذا لا يبتعد

---

(١) نشرت فى مجلة الفردوس — مجلة الطفل المسلم — عدد نوفمبر ٧٣

بها الطيار ؟ .. ودوى الانفجار ، والطائرة تصطدم ببيوت القرية .. بيوت مبنية بالطوب اللبن ، لا تحتمل وطأة هذه الطائرة الضخمة واشتعلت الحرائق ، وسقطت بعض الدور ، واستشهد من استشهد وجرح من جرح ، عدد كبير من الفلاحين الطيبين البسطاء .. وسارع الأهالي بابلاغ المركز .. مركز دكرنس .. وبدوره أبلغ المنصورة عاصمة المحافظة .. وبدورها أبلغت القاهرة عاصمة مصر .. وانطلقت من كل ناحية سيارات الاسعاف والاطفاء ، والنجدة ، وأسرع المسئولون الى الأهالي يقدمون العزاء ويواسون الجـرحى ، ويعالجون المصابين ..

وسيطر على القرية حزن عميق .. عميق .. عميق .

* * *

وفجأة .. انطلقت من قلب القرية زغاريد فرحة .. زغاريد عالية مدوية .. لم يصدق الناس آذانهم .. ان القرية المصرية طيـلة تاريخها تعرف كيف تجامل .. كيف تحزن مع المحزونين ، كيف تفرح مع الفرحين .. ماذا حدث ؟ ماذا جرى ؟ .. هل يعقل ؟ .. زغاريد ؟ .. نعم ، ثم هتاف .. تحيا مصر .. تحيا مصر ..

وقف الأطباء والمسئولون من دكرنس والمنصـورة والقاهرة في ذهول لايدرون ما الذي حدث .. كيف انقلب الصراخ زغاريد .. كيف انقلب الحزن أفراحا .. لا أحد يصدق ما يحدث وما يجرى الجميع يسأل .. اننا لا نفتح المذياع في كل القرية اذا ما توفى فيها

أى فرد ، فما بالكم بهذا .. واذا بواحد من الفلاحين يتقدم وهو يرقص فرحا ، ويصرخ :

— عبرنا .. عبرنا .. عبرنا ..

ولا يفهم أحد ما يقوله الرجـل ، الذى وقف فى يده راديو ترانزيستور مفتوح ..

— يا رجل ، ماذا بك ؟ تفتح الراديو وسط هذه الأحزان

ان الرجل القادم من الحقل ، لم يكن قد علم بحادث سقوط الطائرة .. كان يعمل ويسمع .. وفجأة أذيع بيان القوات المسلحة

بسم الله الرحمن الرحيم .. عبرنا القناة .. ورفعنا العلم على سيناء ..

يا الهى .. نسى أهل الشهداء ، نسى المصابون ، نسى المجرحون نسى المحزونون .. نسوا كل شىء الا أن قواتنا المسلحة عبرت قناة السويس .. ورفعت العلم على سيناء .. وبدأت تزحف لتحريرها .. لتطهيرها .. لضم الأرض الى الوطن الأم .

ويقف المسئولون مبهورين والهتاف : الله أكبر .. والهتاف لمصر يشق عنان السماء .. يهز أرجاء القرية ، ولا أحد فيها يبحث عن تعويض ، ولا الذين هدمت بيوتهم يبحثون عن مأوى .. الكل يبحث عن راديو ليتابع ..

بسم الله الرحمن الرحيم ..

بيان من القيادة العامة للقوات المسلحة .. أصدرت القيـادة العامة للقوات المسلحة البيان رقم .... وهذا نصه ...

ويسكت شبل قليلا ثم يضيف :

– ان التاريخ انعطف .. اتجه بمصر .. الى النصر .. كان المنعطف لا فى قرية دكرنس ولا فى المنصورة فقط .. ولا فى القاهرة ودمشق فحسب بل فى العالم كله . العالم الذى سمع أنباء العبور فى ذهول ..

* * *

نقل أولاد الحى الغربى هذه القصة ، وغيرها من القصص عن صحيفة الحائط التى يصدرها أشبال ٦ أكتوبر ، وكان الجميع يعجبون بها لأنها قصص واقعية حقيقية تجرى على أرضنا وبأيدى أبطالنا .. فى الحقل ، والمصنع والجامعة .. ان كل شىء فى بلادنا انتفض لكى يقاتل ، حتى الحكايات الصغيرة ..

ومن أجمل الحكايات واحدة حملها اليهم من السويس واحد من أهلها قادم فى مهمة عاجلة .. وقد رواها فى جمع من الأشبال والأطفال ..

حكى وقال ..

العم سليمان ، فلاح من السويس ، يمتلك بضع نخلات ، بلحها حلو كالسكر .. محصولها ثروته للعام كله ..

ويخرج العم سليمان الى النخيل ، ويقطع البلح ، ويضعه فى أقفاص ، ويقف على الطريق يشير الى العربات العسكرية ، ويضحك الجنود ، يظنونه يريد أن يبيعهم البلح ، ولكن تتابع السيارات وينجح فى أن يوقف واحدة منها حيث ينتظر العم

سليمان ، ويحمل لهم القفص قائلا : أريد أن يعبر بلحى الى سيناء هـــذه هدية لكم أعرف أن بعضكم صائم .. مع أنه يجوز لكم أن تفطروا فى أيام الجهاد .. وأهديكم بلحى لكى تفطروا عليه انه ســـنة من السنن التى كان يجرى عليها الرسول عليه الصـــلاة والسلام ..

ويحمل الجنود البلح تحت الحاح العم سليمان ، شاكرين بعد أن يرفض أن يتقاضى الثمن .. ويعود الى ابنه ليجده يقرأ فى كتاب الدين قصة ذلك البطل المسلم ، الذى أمسك بلحات فى يده يوم بدر ، وسمع رسول الله يبشر المجاهدين بالجنـــة ، فاذا به يلقى بالبلحة من يده وهو يقول : ليس بينى وبين الجنة غير هذه ؟ .. ويمضى ليستشهد ويهتز العم سليمان للقصة ، ويهتز للأحداث التى تجرى من حوله ولا يكاد يصدق ما يجرى .. لقد استيقظ ذات فجر على آذان يأتيه من بعيد فنفض النعاس من عينيه ، وخرج من بيته الصغير باحثا عن مصدر الصوت ، فاذا به من الضفة الشرقية من القناة . ويهتف هو أيضا الله أكبر .. الله أكبر .. ويومها يتقدم لكى يتوضأ من مياه القناة .. انها طاهرة .. الآن ومن الآن الى الأبد .. وهو يعلم أن كثيرين من الجند قد فعلوا مثله . وأن كثيرين منهم كانوا صائمين .. وأفطروا على رمال سيناء كأنها أشـــهى طعام .. وبعد الصلاة صلاة الفجر ، سمع أزيز طائرات الفانتوم انه يعرفها جيدا .. ثم سمع طلقات مدافعنا انه يعرفها أيضا ، يعرفها أكثر .. وشهد واحدة من الفانتوم تهوى محترقة وقد انشطرت الى نصفين .. ثم هدأت المعركة .

وفى الصباح ذهب العم سليمان الى النخيل يريد أن يحصل على بلحه لكى يهديه الى الجنود فاذا به امام مشهد لا يمكن أن يحدث ولو فى الخيال وقف كأنما يشاهد صورة .. لوحة .. كان لا يستطيع أن يصدق عينيه ... راح يفرك عينيه حتى يتأكد أنه ليس فى حلم ..

لقد رأى نخلته وقد طرحت فانتوم .. كان هناك نصف طائرة معلق يتدلى من نخلة وجاءت القرية كلها تشاهد النخلة .. ويدق العم سليمان كفا على كف ويقول :

— يا أولاد .. ألم أقل لكم ان البلح هدية ؟ .. لماذا ترسلون لى ثمنه ؟ ويضحك الأهالى .. ان العم سليمان يرى ان الجنود قد بعثوا بنصف الطائرة ردا على هديته ، ويقترحون عليه أن يحيط المكان بسور ، وأن يدخل الناس اليه بتذكرة لكى يشاهدوا النخلة التى طرحت فانتوم .. ويشاركهم العم سليمان الضحك ويصر على ان تبقى « الفانتوم » مصلوبة على نخلة محترقة فوقها .

* * *

لقد حفلت صحيفة الحائط التى أصدرها أشبال ٦ أكتوبر بعشرات القصص والبيانات كلها حب لمصر .. وكان « شبل » يجمع هذه المجلات ويحتفظ بها بعد أن تؤدى دورها ورسالتها .. ولقد امتلأت غرفة العمليات بالكثير من الاعداد التى يعتبرها « شبل » وثائق تاريخية ..

— ٥ —



كان شبل يعمل فى « غرفة العمليات » عندما وصل ساعى البريد يحمل رسالتين الى « لبنى » .. وكانت فى تلك اللحظة تعمل مع أطفال الحضانة والرياض .. وقد استبد حب الاستطلاع بشبل حين رأى الخطاب ، الأول بلا طوابع بريد .. اذا هو من الجبهة ، ولكنه لا يحمل خط أبيه .. وكان الخطاب الثانى يحمل طوابع بريد سورية .. وأدرك انه من « شريف » الذى يهوى المراسلة ويتبادل

الخطابات مع شقيقته .. ولم يخطر لشبل رغم هـذا أن يفض الرسالتين .. لذلك مضى الى نافذة البيت ، واطلق الصفير الخاص الذى تعارفت عليه الجماعة ، فاقبل واحد منها ، طلب اليه شبل ان يستدعى « لبنى » لأمر هام ..

وقف الشبل مكان لبنى مع الصغار ، وسارعت هى الى البيت وتسلمت الرسالتين فى لهفة ، وفضت الأولى وهى تهتف :

— شبل .. رسالة من محمود !

لم يكن شبل يتابع كل الأسـماء التى تراسلها شقيقته فسألها :

— محمود ؟ !

— انه المقاتل الذى اكتب له ويكتب لى منذ عامين من الجبهة .. اسمع .

وبدأت لبنى تقرأ الرسالة ..

« بسم الله الرحمن الرحيم .. عزيزتى لبنى ..

أبعث بتحياتى عبر القناة .. من الشرق الىالغرب .. »

همس شبل فى انفعـال ، وبسرعة ، حتى لا يقاطع شقيقته : انها رسالة من سيناء ..

واصلت لبنى القراءة ..

---

(١) هذه الرسالة حقيقية ، من مقاتل مصرى خلال الحرب ، ارسالها الى « لبنى يوسف » ، لم نغير فيها حرفا »

« اسطر رسالتى هذه ، فى فترة من فترات الراحة ، وساعتى تشير عقاربها الى الثانية صباحا ، لكى أطمئنك على أبناء مصر وعلى أبطال مصر ، ولكى أزف اليهم بشائر النصر .. اننى اكتب رسالتى هذه من أشرف مكان فى أرضنا الحبيبة .. من الأرض التى سمع فيها صوت الله .. والتى طالما تطلعنا الى تحريرها من أيدى الغاصبين لقد وعدتك يوما باننا سنحقق النصر ، وهانحن نسحق أعــداءنا ونهزمهم شر هزيمة بعد أن حطمنا أسطورة الجيش الذى لا يقهر وأسطورة خط بارليف صاحب القلاع الخمسة والعشرين التى طالما أرهبونا بها خلال السنوات الستة الماضية .. والذى سقط فى غضون ست ساعات .. لقد رأيت الجندى الاسرائيلى يهرول امامى مذعورا ، يرتعد ويرتعش من هول المفاجأة ، ومن هول ضرباتنا الساحقة .. لم يكن يتوقع عبور هذا المانع المائى الذى يبلغ عمقه ٣٤ مترا ، ولم يتصور أن نتخطى ساترا ترابيا ارتفاعه خمسة عشر مترا عليه تجهيزات وأسلاك شائكة مكهربة .. على أن المهمة لم تكن سهلة امامنا ، ولكن ايماننا الذى واجهنا به العدو وجها لوجه جعلنا ننتصر .. اننا لم نجد فى جنوده قدرات غير عادية .. وهناك لحظة لن أنساها طوال حياتى :تلك هى لحظة رفع عــلم مصرنا الحبيبة ، ليرفرف فى شموخ وكبرياء فوق أعلى حصون العدو الصهيونى .. تلك الحصون التى يتكون كل منها من ملجأين ، كل ملجأ عبارة عن عربة سكة حديد كاملة مدفونة تحت الأرض وفوقها مكعبات الخرسانة التى يصل ارتفاعها الى أربعة أمتار وعليها أكوام

ضخمة من الرمال تصل الى خمسة عشر مترا .. بالاضافة الى ذلك وضعوا حول كل نقطة اعدادا كثيفة من الالغام .. ثم هناك أيضا أشياء أخرى لا تخطر على البال .. صالة سينما .. تليفزيون .. تليفون مباشر .. ثلاجات تحوى ما لذ وطاب .. حمامات مياه باردة وساخنة .. ان كل نقطة ـ فى ايجاز ـ عبارة عن مدينة كاملة تحت الأرض فيها مستلزمات الحياة العصرية .. على فكرة ، فاتنى أن أقول انى احتفلت بعيد ميلادى يوم ٨ أكتوبر ، هنا كان احتفالا مهيبا ، لم يحدث على مدى التاريخ .. ان النيران ظلت تنطلق طيلة الليل والنهار كأنما تحيى يومى ، وكأنهم يحتفلون بى .. وبمصر .. والى اللقاء قريبا ، مع النصر . **التوقيع : « محمود عبده محمود »**

راحت لبنى تعيد قراءة سطور الرسالة من جديد ، بينما انطلق شبل الى النافذة وأطلق صفيرا ، وصل على أثره واحد من الأشبال طلب اليه شبل أن يستدعى الخطاط .. انه يود أن يصدر عددا خاصا من مجلة الحائط ، لا يتضمن شيئا سوى هذه الرسالة التى لا يريد ان تتداولها الأيادى ، بل يود ان تحتفظ بها شقيقته للتاريخ .

وعندما جاء الخطاط ، بالورق والأقلام ، وجد لبنى قد فرغت من تسجيل ردها على محمود .. قالت عبارة واحدة ، نشرتها صحيفة الحائط ، وحملها البريد اليه فى اليوم التالى .. قالت :

---

(١) هذه الرسالة « ايضا » حقيقية ، وهى محفوظة لدى « لبنى يوسف » .

« لقد وعدتنى يوما أنك ستكتب من سيناء .. وكنت على ثقة من أنك سوف تنفــذ وعدك .. لأنك رجــل .. ولانك مصرى .. ولانك حر .. ووعد الحر دين عليه » .

كانت غرفة العمليات الخاصة بالأشبال مليئة بالحركة .. الخطاط والرسام ، وبعض الأشــبال الذين سمعوا بالرسالة جاؤوا لكى يمتعوا أنظارهم برؤيتها ، وليسعدوا بلمسها بأيديهم . كأول شيء يخرج من سيناء اليهم .. وتركت لهم لبنى الرسالة والغرفة ومضت الى حجرة أخرى تحمل الخطاب الثانى القادم من سوريا ..

ومر بعض الوقت ، واضطر شبل الى أن ينتقل الى الحجرة التى فيها شقيقه ، فاذا به أمام مفاجأة مذهلة .. كانت تبكى بدموع غزيرة ، والرسالة ــ فى عدة أوراق ــ أمامها ، سألها وهو يجرى نحوها .

ــ ماذا بك ؟ !

أشارت الى الرسالة ، وهى لا تكاد تنطق .. سألها :

ــ هل هى من شريف ؟ !

ــ لا .. هى عن « شريف الخانى » من شقيقه الذى لا أعرفه .

ــ لماذ لم يكتب شريف ؟

ــ لأنه .. لأنه استشهد !

كانت المفاجأة قاسية على « شبل » .. لقد تذكر رسائل شريف الحلوة . . كلماته عن دمشق .. الجامع الأموى .. قبر خالد بن الوليد .. كان ينقلهم بسطور خطاباته لكى يعيشوا معه .

لقد عرفوا أخبار خطوبته التى منعته قبل اكتوبر من أن يكتب، كما علموا الكثير عن أسرته .. ان عبارة رائعة ختم بها آخر رسائله .. « لن يتكرر منى تأخير المراسلات ، الى أن نلتقى فى ذلك اليوم الذى ينتصر فيه حبنا لمصر » .. انه يتحدث عن « حبنا » لمصر .. ما أروعك ياشريف ، يا ابن سوريا ، وانت تتحدث عن « حبنا لمصر » ..

ويلتقط شبل الرسالة التى بعث بها شقيق شريف .. كان يقول فيها ..

« لقد استشهد اخى محمد شريف فى معركة الشرف والواجب المقدس وروى بدمائه تراب الوطن المفدى وهو يقوم بواجبه تجاه أمته وعروبته امام العدو الصهيونى وبعد استشـــهاده بأسبوع أحضروا امتعته الباقية ، وفى اوراقه عثرنا على رسالة اليك كتبها قبل ان يستشهد ...

وغابت السطور امام عينى شبل الدامعتين ، وهو يقرأ عبارة من الشقيق يقول فيها ..

« تقبلى تعازى القلبية »

انه يعزى « لبنى » فى شقيقه هو .. وتهتز عواطف شبل ، وشقيقته .. « شريف » الذى لم يروه ولم يلتقوا به ، يحسون كأنما هو أخ لم تلده أمهم ، فقـدوه .. لذلك يبكون لفترة من الوقت طالت .. كان الأشـبال خلالهـا قد انجزوا مهمتـهم .. ونزلوا بمجلة الحائط ليعلقوها فى صدر موقعهم .. وعندما بحثوا عن « شبل » ولم يجدوه ، اطلقوا صفيرهم ، فاضطر لأن يخرج اليهم والدموع فى عينيه والرسالة بين يديه ، ومن ورائه « لبنى » يكاد قلبها ينفطر ..

وعرف الأشبال بالأمر ..

وتماسكوا ، وبدءوا عددا جديدا من المجلة رووا فيه قصـة استشهاد شريف .. وصدرت فى مقدمة العدد كلمة من خطاب الرئيس وجهها الى أبطال سوريا فى ١٦ اكتوبر .. قال فيها ..

« انكم عاهدتم وانكم الاوفياء للعهد . وصـادقتم وكنتم أشرف الاصـدقاء . قاتلتم وكنتم أشرف المقاتلين . ولم يكن فى مقدورنا أن نجد رفقـة سلاح أكثر مدعاة للطمأنية والفخر من هذه الرفقة .. لقد كنا معا طلائع المعركة .. تحملنا ضراوتها معـا ودفعنا معا تكاليفها من دمائنا ومواردنا ولسوف نواصل القتال ولسوف نتحدى الخطر » .

واستوقف الاشبال ان الرئيس قد استخدم كلمة « أشرف » مرتين فى كلمته .. وان الشهيد السورى يحمل اسم « شريف » .. ولم يكن ذلك غريبا لانها معركة « الشرف » ..

وقد اهتزت عواطف أهل الحى للرسالتين اللتين وصلتا «لبنى» والتى سمحت بنشرهما فى مجلة الحائط ، وقدم أبنــاء الأحياء المجاورة لكى يقرأوا العددين الصادرين عنهما ، بل انهم جميعــا نقلوا الرسالتين ، وبعضهم حفظهمــا عن ظهر قلب .. وتنــاقل الكثيرون ما جاء فيهما حتى ان اذاعة القاهرة قدمتهما بنصهما فى أحد برامجها .. ولم يكن غريبا ان تتلقى لبنى كلمات مواساة وعزاء من كل اهل الحى على استشهاد شريف .. وقد تلقت من قبل تعزية شقيقه وكان من بين الذين قدموا لهــذا الغرض فنان مسرحى يسكن هذا الحى منذ زمن بعيد ، وتوطدت أواصر الصــداقة بينه وبين الأشبال ، بعد أن بدأت المعارك ..

كان الفنان عندما يخرج من البيت يمر بمركز تجمع أشبال ٦ أكتوبر يقرأ بياناتهم ويطمئن على عملهم ، ويلقى اليهم ببعض كلمات التشجيع والتقدير .. وكثيرا ما كانوا يسألونه عن بعض العبارات التى يسمعونها .. سأله واحد منهم ..

ــ ما دوركم فى المعركة ؟

ــ نحن نعد عملا عنوانه « حدث فى اكتوبر » ..

ويأتيه سؤال آخر ..

ــ نقرأ كلمة « الحائط الرابع » .. ما هذا الحائط ؟

أنت تشاهد على المسرح غرفة ، لها ثلاثة جدران .. الحائط الرابع هو الجدار المرفوع لتشاهد ما يجرى خلفه ..

آه .. تضعون بدله الستارة التى ترفع ؟

ـ بالضبط ..

وتسأله لبنى مرة :

ـ ما هو التأليف الفورى ؟

ـ بعض الممثلين يخرجون على دورهم ويقولون كلمات من عندهم .. وهذا مرفوض طبعا .. يجب الالتزام بكلمات المؤلف .

ويمضى الفنان الى عمله ، وهم لا يرونه عند عودته ، لانه يرجع دائما بعد منتصف الليل .. وكانت مفاجأة رائعة لأشبال ٦ أكتوبر أن دعاهم الفنان باسم فرقته لكى يشاهدوا المسرحية التى حدثهم عنها وعن دوره فيها .. وذهب الأشبال وقد حملوا معهم للفرقة باقة ورد وهناك كانت تنتظرهم مفاجأة أخرى .. لقد استقبلهم الفنانون وصحبوهم الى مقاعدهم فى الصف الاول .. وقبل رفع الستار قدموهم للجمهور الذى حياهم تقديرا لدورهم وصفق لهم ..

وكان الاشبال يعرفون الكثير عن المسرحية من حديث الفنان عنها .. وقد روى لهم مشهدا يدخل فيه أحد الممثلين وهو ساهم يفكر ، ويسألونه :

ـ ماذا بك ؟!

ـ عندى ابن على الجبهة .

وترتفع الاصوات من كل جانب .. وانا عنـدى أخ ، ابن عم

ابن خال .. كل من فى مصر له انسان قريب له يقاتل فى الجبهة .. وكل من فى الجبهة لمصر .. وكان الفنان قد نقل للاشبال ان بطلة الرواية لها شقيق على الجبهة ، وانها تقول هذا بفخر واعتزاز :

ــ وانا شقيقى على الجبهة .

ساعتها تنفرج اسارير الرجل الذى يسرح ويفكر فى ابنه .. والجمهور يصفق للبطلة ، تحية لشقيقها .

كان الاشبال ينتظرون هذا المشهد ، لان كلا منهم له مقاتل فى الجبهة .. بل كان كل منهم يريد أن يرد مع الممثلين .. شبل كان يود ان يقول : أبى فى الجبهة .. وكذلك صالح .. وطارق .. ومحمد فريد ..

وبعد ان اتخذ الأشبال أماكنهم سمعوا أن البطلة ربما لا تمثل دورها فى هــذه الليلة لأن شقيقها ــ الذى كان على الجبهة ــ استشهد ، وكان الجمهور يتساءل : هل ستحضر ؟!

وقد حضرت ، وغلبت واجبها الوطنى على مشاعر الحزن على شقيقها (١) ..

وبدأ العرض .. وكان الأشبال يتابعونه فى اهتمام كبير .. وجاء المشهد الذى كانوا ينتظرونه ، وظهر الرجل الذى يفكر فى ابنه المقاتل على الجبهة ، وردد الممثلون ، بل والاشبال عبارات عمن لهم

● هذه عبارة للفنانة سهير المرشدى ، والحدث وقع فعلا على المسرح .

فى الجبهة .. وامتلأ المسرح كله بالجميع : كل واحد يعلن .. انا لى فى الجبهة ..

وارتفع صوت البطله الفنانة ليغطى على كل الاصوات .. هتفت من اعماق قلبها ..

ــ وأنا شقيقى استشهد فى الجبهة ..

لقد الفت فوريا كلمة واحدة .. ويختلط الجمهور بالممثلين ، ولكن هذه الكلمة المضافة جعلت كل من فى المسرح يصفق تصفيقا شديدا .. واذا بالاشبال يخترقون الحائط الرابع ويحملون الورود التى جاؤا بها ويقدمونها للبطله .. ويختلط الجمهور بالممثلين ، ويندمجون ، ويستمر التصفيق للبطل الشهيد ، ولبطلة الرواية ..

ويقف العرض لحظات لتسكن النفوس وتهدأ ، قبل ان يواصلوا تقديم عملهم الفنى .

وعندما حكى الاشبال فى صحيفتهم ما « حدث فى المسرح » فى تلك الليلة ، قال العم محمود ..

ــ لا أظن مثل هذا الحدث وقع فى تاريخ المسرح فى الدنيا كلها .. اختلط التمثيل بالواقع ، كل شىء فى بلدنا أصبح حقيقيا ، حتى الأدوار على خشبة المسرح ! المسرح يقاتل ، كالجنود !!

وكان من بين سكان الحى فنان آخر .. اسمه « أبو طالب » وهو فنان رسام خرج من عمله فى أول شهر اكتوبر يحمل فرشاته وألوانه وأدواته .. وكان قد انتهى من رسم غلاف مجلة « سمير »

للأطفال .. وتوجه الى الحى ودخل بيتــه لدقائق قليلة ترك فيها أدوات الرسم واستبدل ملابسه ، وتوجه لتسليم نفسه للقوات المسلحة ..

وبعد لحظات قليلة كان يحمل ــ بدل فرشاة الرسم ــ مدفعا ..

وذات صباح عاد أبو طالب الى الحى .. ويلتقى به الأشبال لحظات قبل أن يعود الى موقعه .. ويتطلعون اليه .. انهم يرونه قد أصبح أطول مما كان .. ويقولون له هذه الملاحظة يبتسم ويقول :

لقد استطاع الانسان المصرى بعد ٦ اكتوبر أن يصلب طوله .. ويرفع رأسه .. والحقيقة أن المعركة أطالت رقبتنا ..

يقولون له : لقد عدت اكثر سمرة عن ذى قبل ..

ويضحك ، ويقول : حتى أصير بلونها .. لون التربة .. لون مصر ..

ويسكت .. يقولون له : تكلم .. تكلم .. لا داعى لأن نسألك قل أى شىء ..

يشرد لحظة ، ويتكلم : أنا رسمت للأطفال ، وأحب أن أرسم لهم ، ولم يكن بودى أن اترك الفرشاة ، لكن لكى أستطيع أن أرسم لهم لابد من أن أمسك المدفع .. لقــد رسمت لهم معارك وسمت جسور البطل ، وما تصــورت لحظة أنى سأتحول الى جسور حقيقى ، ولا تصورت أنى سأرى اللوحات التى أتخيلها وأرسمها ، واذا بى أراها بعينى .. لا أن أراها فقط ، انما أصنعها

لا استطيع أن أصور لكم بالكلام صور المعارك ، ولا بالفرشاة .. لكن .. لكن .. سأقول لكم : تصوروا أن يصبح الفرد فى ساحة أرض لم يرها من قبل ، ولم يطأها بقدمه .. فجأة تصبح هـذه الارض أغلى من روحه .. تصبح رمزا للوطن .. يموت ولا يتراجع عنها شبرا .. قلنا كثيرا عبارة الدم يغلى فى عروقنا ، لقد أحسست به بحق يغلى .. واندهش كيف أن العروق تحتويه ، تحول بينه وبين أن ينفجر .. علمونا ان الجسم خلايا ، خلايا حية .. حتى الذى لم يعرف بالمدرسة ما هى الخلايا يحسها ، يحس أنها تقاتل . وفى لحظات ينسى الانسان كل شىء .. وفى لحظات يتذكر كل شىء ، بدقة .. وبالتفاصيل .. لقد رسمت فى الحلقة الرابعة يوم .. وأفيق .. وأضرب .. أضرب .. أضرب . وحين يسود السكون أتحسس نفسى .. ترى هل كل شىء على ما يرام ؟ كسبنا ؟ انتصرنا ؟ هربوا !! .. هل ما زال هناك منهم أحد ؟! .

ويتوتر الفنان لحظات ، لكنه يتنبه لنفسه ، ويسكت ..

يسألونه : وهل احسست وقتها أنك بطل ؟

يضحك .. يضحك .. ويقول : هذا لقب كبير جدا .. لكن ، أحيانا أحس أن كل مقاتل يستحقه ..

يسألونه : وما أكثر لون يخطر ببالك أثناء القتال ؟!.

يبتسم ، ويفكر : لون ؟ كلها تستوى ، ولا فرق بين لون وآخر .. قد ألاحظ اللون الأحمر فى لحظات الوعى النفسى ، لأنه النار

والقذائف المشتعلة ، ولون الدم الذى يطهر الارض .. وقد انتبه فى وقت آخر للأخضر .. لون الزرع .. ولون المستقبل ..

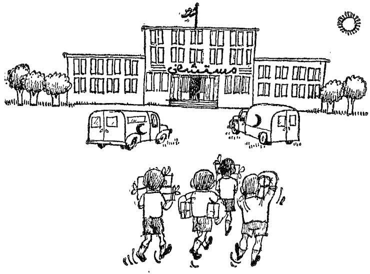
ويسكت لحظة .. ويسود سكون ، يكسره بعده بكلمات .. يقول : أنا مطمئن .. مطمئن جدا .. القناة فى أيدينا : أنا فى الجنوب عند السويس .. وشقيقى فى الشمال عند بور سعيد .. لست قلقا عليه ، ولا هو قلق على ..

ويسألونه : وبعد النصر ماذا سترسم يا أبا طالب ؟!.

يسرح : لا أدرى .. انى أرسم اليوم بمدفعى لوحة لأروع وطن .. ارسم المستقبل له .. ولأولاده .. ارسم .. ارسم .. ارسم : مصر ...

ويهتز الأشبال ، ويتركون البطل ليعود الى موقعه قرب السويس .. ويواصلون هم العمل فى موقعهم .. يعملون ، ويكتبون ، ويتحدثون .. وقد نذروا كل شيء وكل لحظة من أيامهم للحبيبة مصر .

— ٦ —



عندما صدر قرار وقف اطلاق النار — نشر أشبال ٦ اكتوبر في كل أرجاء الحى ، والأحياء المجاورة لافتات تعلن أن المعركة مستمرة — وارتفعت عبارة « خل السلاح صاحى » فى كل مكان .. و « عدونا غدار » .. وعندما قدم بعض أولاد الحى الغربى كان القلق واضحا على وجوههم ، وأدهشهم أن الاشبال يعملون فى هدوء .. همس واحد من الأولاد فى أذن شبل :

— ماذا سنفعل مع الثغرة ؟

رد شبل : هذه ليست مهمتنا ..

— والجيش الثالث ؟ ليس عنده ماء ..

قال شبل : لقد عاد واحد من قوات الجيش الثالث أمس .. لم يتكلم كثيرا .. لكنه قال : اطمئنوا .. ونقل الينا أن الاسرائيليين يثيرون أعصاب الجيش بالقاء المياه أمام أعين أفراده وقد ذهل الاسرائيليون لأن أحد أفراد قواتنا صعد أمامه الى تل عال ، يحمل صفيحة كبيرة ، وراح يسكب ماءها أمام الأعداء .. الأمر الذى أدهشهم ، أن يكون لدى جيشنا الثالث كل هذه الكمية التى يمكن أن يستغنى عنها ويلقى بها فى الرمال .. وكف الأعداء عن تصرفهم لأنهم وجدوا أمامهم صلابة لا تلين ، وصمودا لا يتزعزع .

سكت شبل قليلا ، وأضاف ..

ـ هيا نقوم بمسئولياتنا .

بدأ الجميع يعملون .. وعلقت صحيفة حائط جديدة .. واتصل واحد من الأشبال بمصلحة التليفونات لاصلاح تليفون « العم محمود » .. وأطمأن عدد منهم الى أن الجزء الذى احترق من الفرن قد تم ترميمه ، كما وقف بعضهم عند الجمعية التعاونية لتنظيم طابور المشترين ..

وعلم الأشبال من الصحف أن عددا من الجرحى الأبطال قد بدأ وصـــولهم الى مستشفى قريب وفكروا فى التسلل لزيارتهم من باب جانبى .. ولكن شبل رفض الفكرة .. ان الهدف نبيل لكن الوسيلة اليه لا يمكن أن تبرر هذه الغاية .. ورأى الجميع الانتظار الى أن يسمح للمواطنين بزيارة الأبطال ..

وخلال نفس الأسبوع صارت الزيارة ممكنة بشرط ألا يثقل الزوار على الأبطال ولذلك عقد الأشبال اجتماعا يفكرون فيه معا ويقترحون أفضل السبل لتكريم هؤلاء الجنود ، والاطمئنان عليهم والاعراب عن تقدير الوطن وتقدير الأشبال لما بذلوه .. وبعد أيام استدعى صاحب محل الزهور « شبل » وسأله :

ــ هل تريد أن تستأنف بيع الفل والياسمين ؟

وسكت شبل ، ويسأل الرجل أن يمهله بعض الوقت ليفكر .. ويعود الى « الكتيبة » يسألها :

ــ هل من المعقول أن أقوم بهذا العمل الآن ؟ !.. فكروا معى .. وقفزت الفكرة الى رأس شقيقته .. وقالت ..

ــ لماذا لا نشترى نحن كل الفل والياسمين ؟

ــ ماذا نفعل به ؟

ــ نحمله الى جنودنا فى المستشفيات نطوق به أعناقهم ..

واهتز الأولاد للفكرة .. وخلال لحظات كانوا قد جمعوا كل ما لديهم من نقود .. وذهبوا لصاحب متجر الزهور ليشتروا ما لديه من فل ، وياسمين ، وورد .. وهش الرجل .. فما تعود أن يشترى الأطفال كميات كبيرة على هذه الصورة .. ربما اشتروا القليل فى عيد الأم .. وسألهم الرجل ، وعندما علم بما سيفعلون بالورود والزهور قرر أن يتبرع بها ، وأبى الأشبال الا أن يدفعوا ثمنها الأصلى .. وفى غرفة عمليات شبل ، بدأ (أشبال ٦ أكتوبر)

يعدون باقات الورد .. والزهور .. وعقــود الفل والياسمين .. ويستخدمون فى عملهم الخيط الأبيض الذى ضمه شبل الى عملياته وكان العمل كبيرا مرهقا ، لكنهم أنجزوه بسرعة وحماسة .

وكانت مفاجأة رائعة لمستشفى (.....) أن يفتح أبوابه فى الصباح ، واذا بأشبال ٦ اكتوبر يتدفقون على العنابر ، واذا بكل بطل يفتح عينيه على باقة جميلة من الزهور بجانبه وعندما يستيقظ ويجلس فى فراشه يجد ابتسامة حلوة ، ويدا رقيقة تطوق عنقه بعقد من الفل والياسمين ..

أتم أشبال ٦ اكتوبر عملهم بهــدوء .. أنهم لا يريدون أن يقلقوا الأبطال .. وخلال خروجهم من باب المستشــفى وجدوا مديرها يشد على أيديهم فردا فردا ، ووجدوا عددا من الممرضات المتطوعات يقبلن كل شــبل .. وعاد الجميع الى (الحى) وقد شعروا أنهم أدوا بعض الواجب عليهم . وأدرك الأشبال قيمــة الأشياء الصغيرة فى غرفة عمليات شــبل ، وفهموا أنهم يقومون بعمل كبير .

وبدأ الاشبال يتحركون فى المستشفى بهدوء .. يتحدثون الى الابطال، يرفهون عنهم ، ويلتقطون منهمقصص البطولة ، وينقلونها الى صحيفتهم .. ولم يكن البطل يحكى عن نفسه ، بل عن بطولة زملائه .. وقد قابلوا جنديا ضاحكا باسما ، لكنه دائم الشكوى لانه لا يستطيع النوم .. لماذا ؟!.. هل يؤلمه جرحه ؟ هل يود العودة للقتال كما يرددون دائما ؟ هل هو مصــاب بأرق ؟ .. واذا به

يقدم أغرب سبب .. لقــد تعود على النــوم على دوى المدافع وانفجارات القنابل ، وهو غير قادر على «احتمال» هدوء المستشفى ويضحك الطبيب ، ويقول انه لا يجد حلا لهذه المشكلة ، ولكن واحدا من الاشبال يقدم راديو صغير هدية للمقاتل يضعه تحت الوسادة ، لينام على ضجيجه !

ويشهد الأشبال صورا رائعة من نضال أبناء مصر .. يستمعون اليها من الأبطال .. لقد وجدوا (الشاش) متوفرا وعندما سئل أحد الأطباء :

ــ هل حقا كانت هناك أزمة (شاش) قبيل الحرب ؟!

أجاب الطبيب : نعم ولكن شكرا لعمال النسيج فى بلادنا . لقد أمدونا بنحو ستة ملايين متر من (الشاش) ، سهروا على صنعها فى ليلة واحدة .. ورفضوا أى أجر عليها اعتبروها هدية منهم ومساهمة فى المعركة ..

وأضاف : اكتشفنا فى أحد المستشفيات أنه ليس لدينا جبائر معدنية نستخدمها فى تجبير العظام المكسورة ، ولم نجد الحامل الذى يرفع المحاليل والدم لنقلها الى الجرحى .. وهى مصنوعة من الحديد .. ربما كنا نستوردها من الخارج .. وفى فناء المستشفى تجمع عدد من الأبطال العمال والحدادين والصناع . وكان فى الفناء بعض حديد لبناء جناح جديد فى المستشفى .. وفى يومين استطاعوا ان يصنعوا مائتى جبيرة ، ومائتين وخمسين حاملا معدنيا

.. وعندما بحثنا عنهم اكتشفنا أنهم اختفوا .. لم يطالبوا بأجرهم ، بل لم يسجلوا حتى اسماءهم .

ويلتقى الأشبال والأطباء حول فراش واحد من الابطال .. يروى بطولات من الميدان .. ولكنه فجأة يرجو أن يسمع بطولات الجبهة الداخلية .. ويروى عن قريب يعمل فى احدى شركات انتاج المواد الغذائية ، قدم لزيارته فى المستشفى ، وحمل اليه دجاجتين مشويتين ، وقال انه يريد أن يعوضه عن فترات الحرمان الطويلة أثناء القتال .. وضحك الجندى ، وأعلن له أنه كان فى الميدان يأكل وجبة ساخنة .. ولم يصدقه القريب ، وتحدث الجندى عن أرز باللحم المفروم فى علبة ، وضع فى أسفلها خزان به قليل من الكحول ، كان يشعله فيدفىء له الطعام .. ويهتز القريب ، ويقبله ، ويعلن أنه فى مصنعه قام بانتاج هذا النوع من الغذاء ، ويقبله الجندى ويقول انهم فى الميدان كانوا يشعرون بامتنان عميق لهؤلاء الذين قاموا بطهى هذه الوجبة الشهية ..

والتقى الأشبال فى المستشفى ببطل جريح .. درس التاريخ فى الجامعة ، ثم جند من أجل أن يصنع التاريخ فى سيناء .. وكان لهم معه حديث ممتع .. جلسوا اليه يستمعون وهو يحكى .. لم يكن يبدى اهتماما كبيرا بجرحه واصابته .. كان يتكلم ، ويضحك حين يسألونه أن يروى بطولاته التى سمعوا عنها من زملاء له .. كان يقول ببساطة ..

ــ ليس لنا فضل فيما حدث ان المسأله ببساطه أن التاريخ الذى درسه فى المدرسة والجامعة وقف على قدميه وانتفض .. وقف كعملاق .. وبدأ يقاتل ، لقد كنا نقاتل كتاريخ وحضارة كنا نقاتل نيــلا وحقولا .. كنا نقاتل ، ســـدا عاليا وأزهر وأهرامات .. ويسكت ويضيف .. على فكره : كنت فى الماضى أتصور أن دراسة أوراق البردى أصعب شيء فى الوجود .. وضحكت فى الميدان حين خطرت لى هذه الفكرة .. ضحكت على سذاجتها .. ان صناعة التاريخ عمل صعب جدا .. جدا .. والصفحات أضفناها للتاريخ . ٦ أكتوبر ، صفحات طويلة ، ستحتاج لوقت طويل لاستيعابها لكن اتصدقون ؟ .. ان تاريخ مصر هو الذى عالجنى من الكسر ، الذى أصبت به فى الترقوة ، وخلع فكى الأسفل ..

ويضحكون ، ويندهشون ، ويحسبون أنها مبالغة منه .. لكنه يكمل :

ــ ان هذا الكلام ليس كلامى أنا .. انهم الاطباء .. لقــد ناقشتهم فى المستشفى .. كان نقاشا طريفا .. وكنت قد درست بردية « ادوين سميث » ــ واحدة من أشهر برديات ثمانية سميت بأسماء مكتشفيها، كلها حول الطب ــ وبردية ادوين سميث معظمها حول الجراحة .. وهى من أيام مصر الفرعونية .. تحتوى على ٤٨ لوحة دراسية فى جراحة العظام والجراحة العامة .. مرتبة تبعا لتقسيم الجسم ابتداء من الرأس والأنف والفك ثم العنق .. وهكذا الى أسفل .. قرأت عنها وكنت ابتسم . وأتساءل : وما قيمة هذا ؟

لابد أنها مسائل عفا عليها الزمن وانتهت .. والطب تطور .. تقدم وهل يتصور أحدا أن هـذه البردية يمكن أن تخدمنا اليوم فى شىء ؟.. وكأن القدر كان يسـمعنى ، وأعد الرد ، قدمه لى أنا بالذات وأين ؟ على سرير المستشفى .. قاتلت بالقدر الذى ساعدنى الله عليه .

ويقترب الأشبال منه كى يفيض ويضيف فى حديثه عن دوره القتالى واذا بالعبارة تقف وتبتر عند هذا الحد .

وأصبت قضاءا وقدرا .. ليس بأيدى أعدائنا بل سقطت من السيارة وحدث الكسر فى الترقوة ، والخلع فى الفك الأسفل .. ونقلت الى الطبيب المقاتل .. كان انسانا ، لطيفا ، خاصة حين نطقت له باسم البردية .. سألنى :

ـ هل درست الطب ؟

قلت له : لا .. بل درست التاريخ .

ضحك ، وقال لى : اذن سنعالجك بالتاريخ .. بتاريخ مصر ..

ذهلت .. وسألته : ما معنى هذا ؟

قال لى : رغم كل التقدم فى الطب .. رغم كل التطور .. لا يوجد حتى اليوم علاج لكسر الترقوة ، ولا لخلع الفك السفلى الا ما ورد فى بردية : أجدادك ، أجدادنا ، قدماء المصريين !

ذهلت .. يا الهى ! لكننى بعد قليل شعرت ببعض الراحة .. اذ سيتم علاجى بأسلوب مصرى ، وبيد مصرية .. اذن ، العلاج

سيكون ناجحا ــ والا لما عاش خمسة آلاف سنة ــ انظروا .. هل تحسون بأني كنت مصابا ؟! .. أبدا .. لقد عاد كل شيء تماما .. وأنا عائد لفرقتي .. فمصر هي التاريخ .. مصر هي العلاج .. مصر هي الطب .. مصر هي الدواء ..

ويضيف المقاتل دارس وصانع التاريخ :

ــ وبردية (ايبرس) المصرية القديمة فيها أروع دستور لصناعة الدواء في العالم . ويكفي أن بلادنا عرفت الصيدليات قبل الدنيا كلها .. وكانت مدينة (أبو تيج) المعروفة ، الشهيرة مخزنا للدواء عند الفراعنة ، وكا اسمها (أبو تيكا) ، وعنها أخذ العالم كلمة (بوتيك) التي تطلق على المتاجر الصغيرة في كل مكان .. وأيضا أخذوا كلمة (النيترات) عن وادي (النطرون) الذي كنا نستخرج منه الصودا الكاوية لنستخدمها قبل اكتشاف الصابون .. هذه هي مصر .. وهذا هو سر حبنا لها وقتالنا من أجلها ..

وفي أيام أخرى يلتقط الأطباء الخيط في الحديث ، ويتكلمون ليسمروا مع الأشبال والأبطال .. قال واحد من الأطباء ..

ــ هذا الشعب « عنده دم » ويجود به دفاعا عن وطنه .. كنا من سنوات في حملة لجمع الدم . لكن فلاحا في قرية قال لنا .. لا تتعبوا أنفسكم .. دعوا عشره يعبرون القناة وسترون كمية الدم التي ستحصلون عليها .. كان هذا الفلاح بعيد النظر ، بعد السادس من اكتوبر كانت طوابير المتبرعين بالدم أطول من طوابير

الجمعية التعاونية .. رأيت واحدا فى طابور الدم يضرب الأرض بقدمه ويسأل : متى يأتى دورى وكان كثيرون يخافون أن يرفض الأطباء قبول تبرعهم بالدم .. ولا أنسى جنديا مصابا ، لم يكن يستطيع الكلام .. طلب قلما وورقة .. واذا به يخط عليها فصيلة دمه معلنا رغبته فى التبرع به !

ويكتب الأشبال هذه القصص ، سعداء بها غاية السعادة .. ان بطولات القوات المسلحة واضحة ، وهم يريدون أن يكتشفوا البطولات الأخرى .. وفتحوا عيونهم وآذانهم لطبيب يروى تجربة له مع طيار اسرائيلى أسير .. هذا الأسير أصيب ، وأصبح فى حاجة الى علاج والى نقل دم .. وحاول الطبيب المصرى أن يأخذ منه عينة لكى يعرف فصيلته ، واذا بهذا الأسير يرفض .. ويذهل الطبيب ويحاول معرفة السبب ، ويرفض الاسرائيلى أن يعترف به .. ويأخذ منه الطبيب العينة غصبا عنه .. انها مسألة حياة أو موت .. ويعرف فصيلته وينقل له الدم .. وهذه أشياء ليست جديدة علينا ، أيام صلاح الدين الايوبى عملناها ، نحاربهم بالنهار .. ونعالجهم فى الليل .. الطبيب ينقل للأسير الاسرائيلى الدم .. وينتعش هـذا الاسرائيلى .. وتعود له الحياة .. وينقذه الطبيب من الموت .. ويحس الأسير بنوع من الامتنان لمن لديهم الانسانية ولم يتركوه للموت .. ويضطر للاعتراف بأنه لم يكن يريد أن يأخذوا منه العينة ..ولا يريدهم أن ينقلوا اليه دما .. فقد أفهموه فى اسرائيل أن دمه

نقى ، بل هو أنقى الدماء فى كل شعوب الأرض لذلك لم يكن يريد أن يختلط دمه بدم آخر .

لقد وصلت العنصرية بهؤلاء الناس الى أبعد مدى ـــ وصلت الى درجة تهدد حياة الفرد منهم ومع ذلك يظل على تعصبه لهذه الفكرة السخيفة .. العقيمة .. الفكرة الجنونية الثابتة لشعب الله المختار ، الذى جاء ينقل الحضارة الى المنطقة ولكن بعد أن يسمع عالمنا مثل هذه القصة يعرف أن صناع الحضارة الحقيقية يقفون فى طوابير .. تجود بالدم فى سيناء .. بل ، وتجود به لعدوها .. بينما هذا العدو يعاقب كل من يخالف المرور باجباره على التبرع بنصف لتر من دمه !.



تطلع شبل الى صورة والده فى ملابسه العسكرية ، وتنهد الصغير .. أنه فى شوق كبير الى أبيه .. وظلت أنظاره معلقة بالصورة وشريط ذكرياته الحلوة معه يمر فى رأسه .. لكم يحبه .. انه أعظم الآباء !

وتساءل شبل : متى يعود ؟!.. كان يحن الى أبيه ويريده بجانبه مثل كثيرين من زملائه .. انهم يتمتعون بوجود آبائهم بجوارهم ، وارتفع صوت نشيد فى الاذاعة ..

« راجعين .. راجعين

حاملين رايات النصر

نادرين حياتنا لمصر .. باسمك يا بلدى .. »

واشرق وجه « شبل » بالابتسامة ، وقال لنفسه ..

— انهم يستمتعون بوجودهم بجوار آبائهم بفضل أبى الذى يدافع عن مصر .

وفى هذه اللحظة بالذات أدرك قيمة بعد أبيه عنه ، وقرر أن يحتمل الشوق والوحشة فى صدره ..

انطلقت صفارة التجمع فمضى شبل الى الشارع ليلتقى بزملائه لكى يبدأ العمل .. فريق يبقى فى الحى ، وآخر يذهب الى المستشفى .. وكان على « شبل » أن يقود الفريق الاخير الى المستشفى .. انهم يحملون اليوم الى الأبطال هدية حلوة .. انها الاوراق المنتزعة من كراساتهم القديمة ، وكمية كبيرة من المظاريف والأقلام ..

وكان الأشبال فى اليوم السابق قد مروا بالدور يسألون أصحابها ..

— هل لديكم كتاب، يتسلى بقراءته بطل جريح فى المستشفى؟!

كانت هذه العبارة البسيطة كفيلة بأن تجعل هؤلاء يقدمون عن طيب خاطر الكثير من الكتب .. بل ان بعضهم اختار أفضل ما فى مكتبته .. انه يرى أن هذا أقل ما يجب نحو هؤلاء الأبطال ..

حمل الاولاد الكتب ، والأوراق ، والأقلام ، واتجهوا فى هدوء الى المستشفى .. واستقبلهم الأطباء والممرضات بكل حفاوة ، كما عودوهم .. وأعد الأشبال مكانا لوضع الكتب ، ووزعوا قائمة باسمائها ، ليختار الابطال ما يرغبون فى قراءته .. ثم وزعوا الاوراق والمظاريف والاقلام .. واعلنوا للجنود انهم على استعداد لحمل الرسائل الى صناديق البريد أو الى أهلهم اذا كانوا يعيشون فى المدينة ..

ونادى احد الابطال الصغير « شبل » اليه .. وقال له ..

ــ بودى أن أرجوك فى شيء ..

ــ أنت تأمر ، وعلى أن اطيع ..

ــ عفوا .. أنت ترى أن يدى مصابة ، ومربوطة ، ولا أستطيع أن أستخدمها فى الكتابة .

ــ هل تريد أن تملينى رسائلك ؟

ــ نعم .. اذا سمحت .. وبودى ان يكون خطك واضحا ..

ــ انه لا بأس به ..

ــ ان الرسالة ستكون لولد صغير ..

أتى شبل بمقعد أبيض ، وورق أبيض ، وجلس الى البطل ، صاحب اليد الجريحة ، وتطلع اليه بعينين واسعتين ، يسأله ان يبدأ فى املاء الرسالة .. وتذكر فى هــذه اللحظة سؤال والدته وشقيقته له :

ـــ لماذا لا تسأل المجندين عن والدك ؟!

كان دائما يرد : بودى أن افعل ، لكننى أقاوم نفسى ..

ـــ لماذا ؟!

ـــ لا أريد أن أسأل عن أمر شخص يهمنى وحدى .. اننى لا أسأل الا عن مصر وجنود مصر ..

ـــ انه واحد من الجنود ..

ـــ نعم .. بل هو بطل .. لكنه ، أبى .

تذكر شبل هذا وهو يضع الأوراق من فوق كتاب ، ويهمس للبطل ..

ـــ تفضلْ ..

ويبتسم البطلُ ، ويسأل الصغير فى حب :

ـــ اين كنت ؟!.. ولماذا سرحت ؟!

أجاب شبل : لا شىء . لا شىء . أنا معكَ .. تفضل ..

قال البطل : اكتب .. بسم الله الرحمن الرحيم ..

بدأ شبل يكتب .. وراح البطل يملى عليه الكلمات .. قال ..

اكتب .. ابنى وعزيزى ..

توقف شبل لحظة ، ثم انطلق يكتب .. « ابنى وعزيزى .. » .. وعندما اضاف البطل الجريح :

ابنى وعزيزى شبل ..

سكت شبل تماما ، ولم يتحرك القلم على الورق ، ورفع رأسه الى الجندى الراقد فى الفراش وتطلع اليه بعيون متسائلة ، كأنما لم يسمع ، فكرر البطل عبارته ، و «شبل» تلهث فى رأسه الافكار، والخواطر ، ويسأل نفسه : أيكون هو المقصود بهذه الرسالة أم هو مجرد تشابه فى الأسماء ؟! .. حاول شبل أن يتمالك أعصابه ويواصل الكتابه ، فرفع رأسه للبطل ، يرجوه أن يواصل املاء الرسالة ..

ـــ نعم ؟ ..

ـــ اكتب .. تحياتى الحارة لك ، أبعث بها من فوق فراشى بالمستشفى ، راجيا أن تكون ووالدتك وشقيقتك فى خير حال .. اننى اكتب اليك بناء على وصية أبيك ..

عندما سمع شبل كلمة « وصية » شهق وجمد القلم فى يده من جديد ، وحاول أن يمضى فى الكتابة لكنه لم يستطع ، ونبهه الجندى ، قائلا :

ـــ ماذا بك ؟! اننى اختار كلمات سهلة .. أراك لم تكتب عبارة « بناء على .. » .. همزة مفردة .. أى على السطر ..

بلع شبل ريقه وأخذ نفســا طويلا عميقا ، وقال وهو ينتزع صوته من أعماقه ..

ـــ هل قلت ـــ حضرتك ـــ « وصيته » ؟!

ـــ نعم .. وصيته كان بطلا عظيما ..

ـ تقول « كان » ؟!

ـ نعم ، كان بطلا عظيما خلال معارك العبور الخالدة ..

ويهمس الجندى لنفسه « فعلا ، كان بطلا » .. ويرفع صوته مخاطبا شبل :

بل كان اعظم من بطل ، كان جسورا كأسد ، حتى ان صرخته ـ بل زئيره ـ كان يخلع قلب اعدائنا ، ولا اكتمك أن صوته كان يخيفنى شخصيا ، وأنا رفيقه فى السلاح ، وزميله فى المعركة .. كانت القنابل تتناثر من حوله ، ولا يحاول أن يتفاداها ، بل يمضى قدما ، والى الأمام ، كأنما هى رزاز مطر ، لا يبلل حتى ثيابه ..

وتنهد البطل الجريح ، وأضاف ..

ـ أريدك أن تقول كل هذه الكلمات لابنه ، لكى يكون فخورا بأبيه .. الذى كان اشجع من عرفت فى حياتى ..

ويتطلع اليه شبل فى قلق رهيب ، ويسأل من جديد : تقول « كان » اشجع من عرفت ؟!

ويبتسم الجندى ويقول : ماذا بك يا ابنى ؟! نعم ، قلت « كان » .. ويضحك وهو يضيف :

ـ لا أظن أنى قلت « أصبح » ! .. اكتب ..

ويشرع « شبل » قلمه لكى يكتب .. ويمليه الجندى البطل :

ـ كنا سويا لحظة العبور .. كنا فى أول دفعة عبرت .. فى الثانية وخمس دقائق من بعد ظهر السادس من أكتوبر .. وحضننا من رمال سيناء وملأنا بها أكفنا ، وقبلناها ، بل ذقنا طعمها وأفطرنا عليها فى ذات يوم .. العاشر من رمضان .. وكانت مفاجأة اننا خلال صعود الساتر الترابى كنا معا .. عندما وصلنا قمته ، وتنبه كل منا لنفسه وافاق لما عرف رفيقه .. وبدأنا نطلق النار معا .. والمفاجأة الأروع أننا عندما اقتحمنا خط بارليف وجدنا أنفسنا متلازمين .. نقاتل جنبا الى جنب .. وبعد ان تم لنا احتلال الموقع ضم كل منا الآخر الى صـــدره ، يقول لى مبروك ياشحاته ، واقول مبروك يا اسماعيل ..

وعندما نطق الجندى بالاسم الاخير انفرجت أصابع شبل عن القلم ، ولم تكن قادرة على أن تظل ممسكة به ، بل كان يتطلع اليه وهو يتدحرج على الورق ليسقط على الارض دون أن يمد يده اليه ليستبقيه ويقيه السقوط .. وكان الجندى البطل فى تلك اللحظة يغير من رقدته ، ويبدل من وضعه فوق الفراش ، فلم يلحظ أن عينى شبل قد أصبحتا جاحظتين وأن وجهه قد امتلأ بمشاعر عنيفة متضاربة ، وان جسمه قد تخشب فوق مقعـــده .. وترامى الى الجندى صوت سقوط القلم ، فقال :

ـ هات القلم يا عزيزى ، وأكمل ..

انحنى شـــبل على الأرض ، والتقط القلم وهو يعيش أفظع لحظات عمره .. تأكد أن الجندى يتحدث عن أبيه ، وعرف أنه يكتب لأول مرة فى التاريخ رسالة الى نفسه .. وسـلم أمره لله ، وبدأ يخط الكلمات على الورق زائغ البصر متلاحق الانفاس ، ويده ترتعش وترتجف حتى أن العبارات انزلقت من فوق السطور ، ولم يلحظ الجندى كل ذلك فانه كان يحملق فى سقف المكان ، ويتطلع بعيدا ، كأنما ينظر الى ميدان المعركة فى سيناء ويحاول أن يتذكر أحداثها .. وبعد لحظة ، أضاف ..

ــ وانطلقنا نحرر الارض ، وخضنا معـا معركة الدبابات الشرسة ، أكبر معارك التاريخ وخلالهـا أصبت .. واذا بالبطل يحملنى بيسراه على كتفه ، بينما يمناه تطلق النار . وقد نجح فى انقاذى فى ذلك المساء الرهيب .. ونقلنى الى بقعة آمنة .. وودعنى وهم يحملوننى بعيدا عن أرض المعركة ، وأوصانى أن أبعث اليك انه بخير .

وعندما سمع شبل هذه العبارة قفز من على مقعده ، ووقع القلم والأوراق على الارض ، واندفع بقوة تجاه البطل الجريح ، وهو يضمه اليه ، ويقبله فى وجهه ورأسه وكل مكان استطاع ان يصل اليه بشفتيه ، والدموع تسيل من عينيه وكلمات مبحوحة تنطلق من حنجرته ، والجندى يحاول أن يهدىء منه ومن انفعالاته ويسأل السر فيها ، وقد استرعى الموقف التفات كل من فى المكان ..

من جرحى ، وأطبـاء ، وممرضات ، وجرى البعض الى فراش البطل يستطلعونه الأمر .. بينما هو يقول للصغير شبل :

ــ ماذا جرى يا ابنى ؟ اكتب الرسالة لتطمئن الولد على أبيه البطل الذى انقذنى .

هتف شبل والدموع فى عينيه :

ــ لقد وصلت الرسالة .. ان الرسالة موجهة لى .. أنا شبل !

واذا بالذراع الجريحة تتحـرك ، وتضم شـبل .. ويذهل الأطباء ، فقد كان فى تقديرهم أن هذه الذراع قد شلت ، وأنها لن تتحرك . بل تصوروا فى لحظة انهم سوف يبترونها ، ولكن ها هى تتحرك ، وتدور ، وتلف ، وتضم الصـغير فى قوة وعنف وحب .. ودبت الحياة فى كفه ، واذا به يبسط أصابعه ويقبضها ، ويصيح فى فرح :

ــ كفى سليم .. كنت دائما أراه شبيها بسـيناء الحبيبة .. كنت أراها فيه .. الحمد لله .

كانت سحب الدموع تتجمع فى العيون ، وشبل يلتقط قلمه ورسالته ويمضى بهما الى موقعه ، راضيا سعيدا .. لقد حملت اليه ورقة كراسته أجمل نبأ . ان أباه أدى واجبه الوطنى وكان بطلا من أبطال العبور ، والنصر .

رقم الايداع بدار الكتب ٨٤٢ [illegible] ١٩٧٤

الشعب

٩٩ شارع قصر العيني بالقاهرة
تليفون [illegible]

كلمة

... ان الاستاذ عبد التواب يوسف ، بهذه الكتب يبذل الكثير من اجل ابنائنا ، ومن اجل مكتبتهم التى مازالت تحتاج الى جهود مضاعفة .. ولقد اتحت له حين تحملت مسئولية التربية والتعليم وفيما بعد ذلك فرصة زيارة الكثير من العواصم الاوربية لدراسة ثقافة الاطفال لديهم ، وعاد مبهورا بما شاهد ولكنه ظل مؤمنا بدينه ، وعروبته ، ووطنه ، يفيد مما شاهد دون ان يفقد اصالته بل انه يستخدم ما رآه ودرسه فى خدمة موضوعه الذى يستمده من ديننا وأرضنا وقوميتنا .

د . محمد حافظ غانم
نائب رئيس الوزراء

طبعة خاصة
الهيئة العامة للاستعلامات